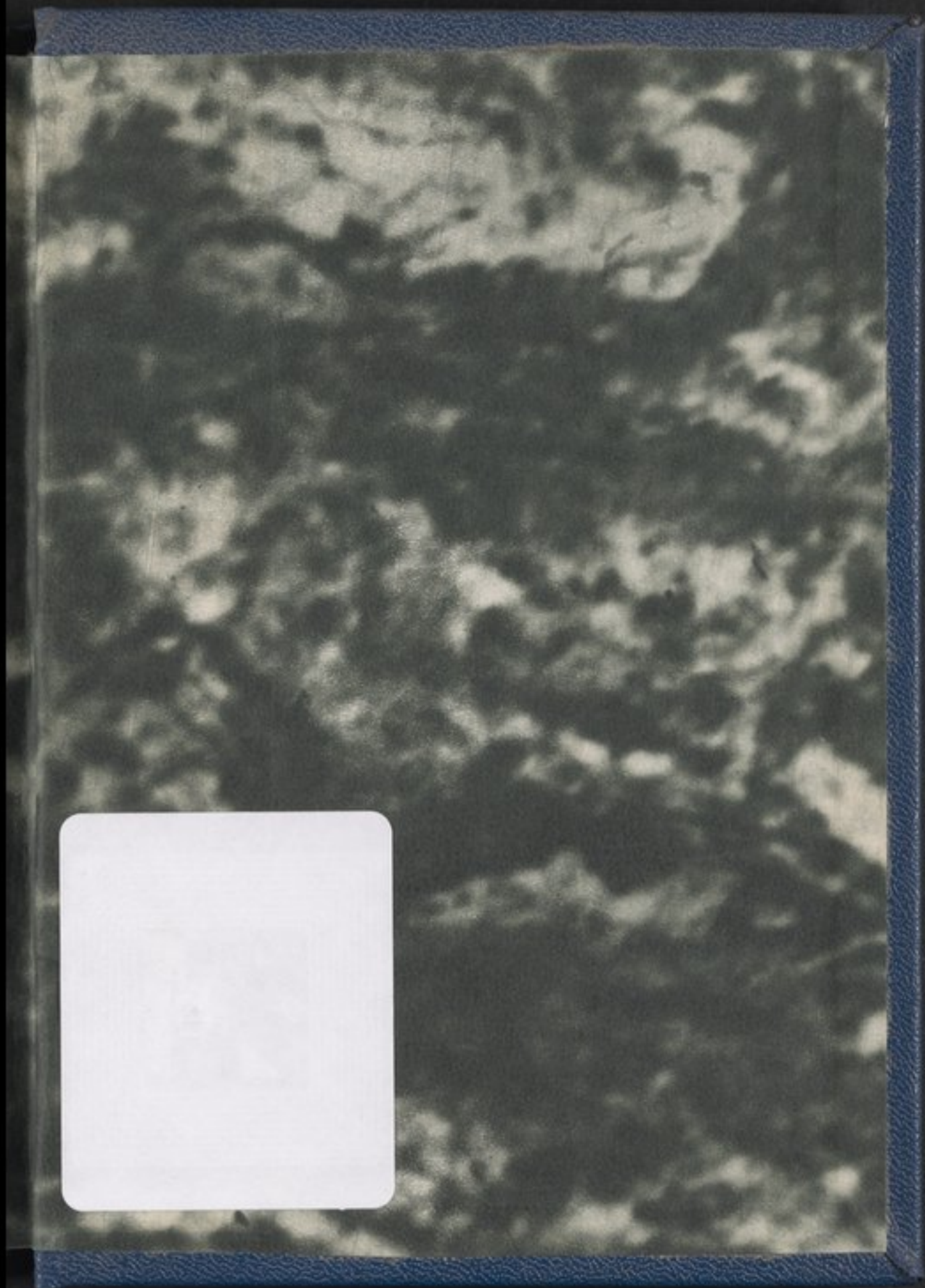


AMERICAN LIBRARY IN CAIRO LIBRARY

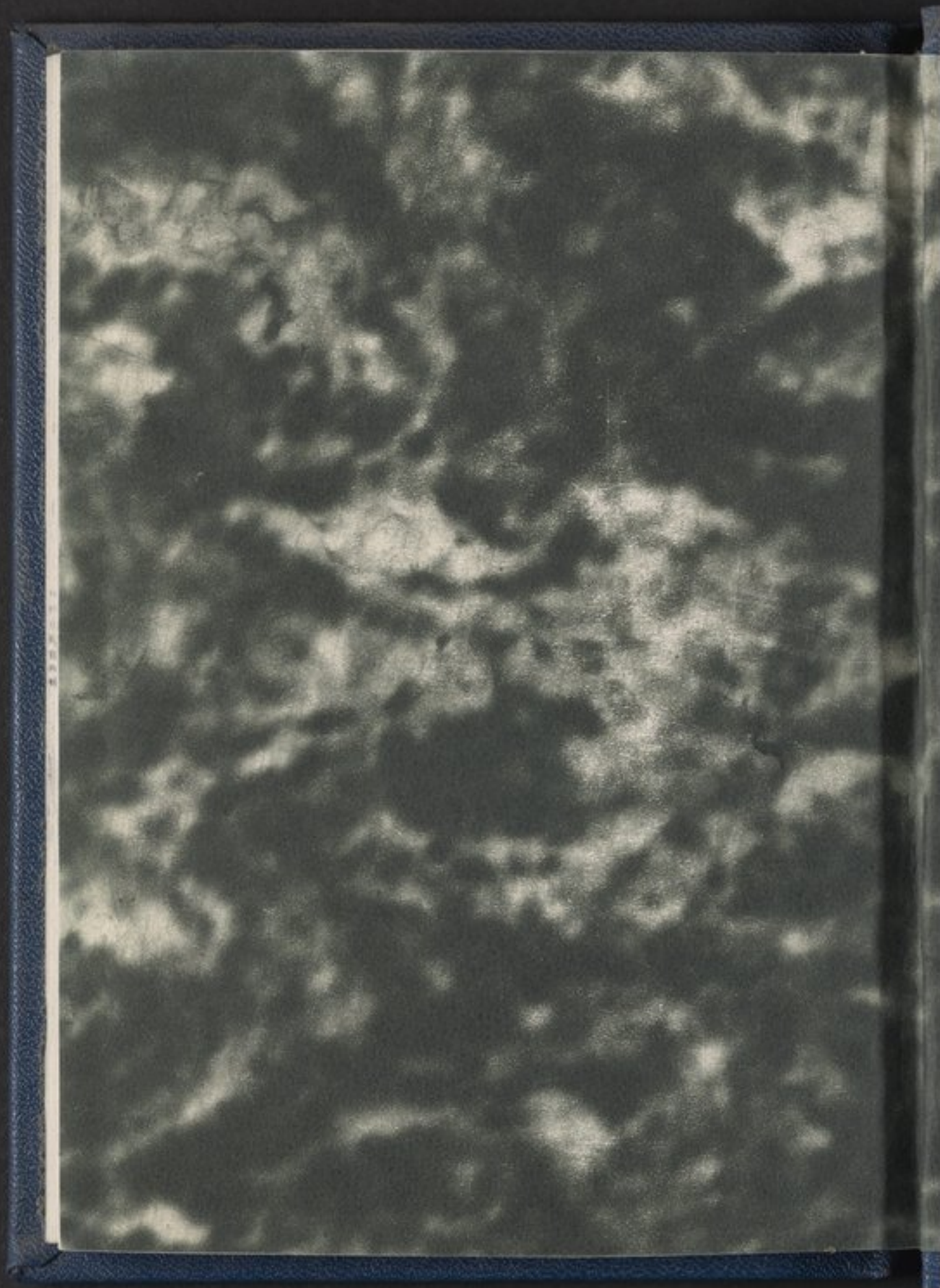


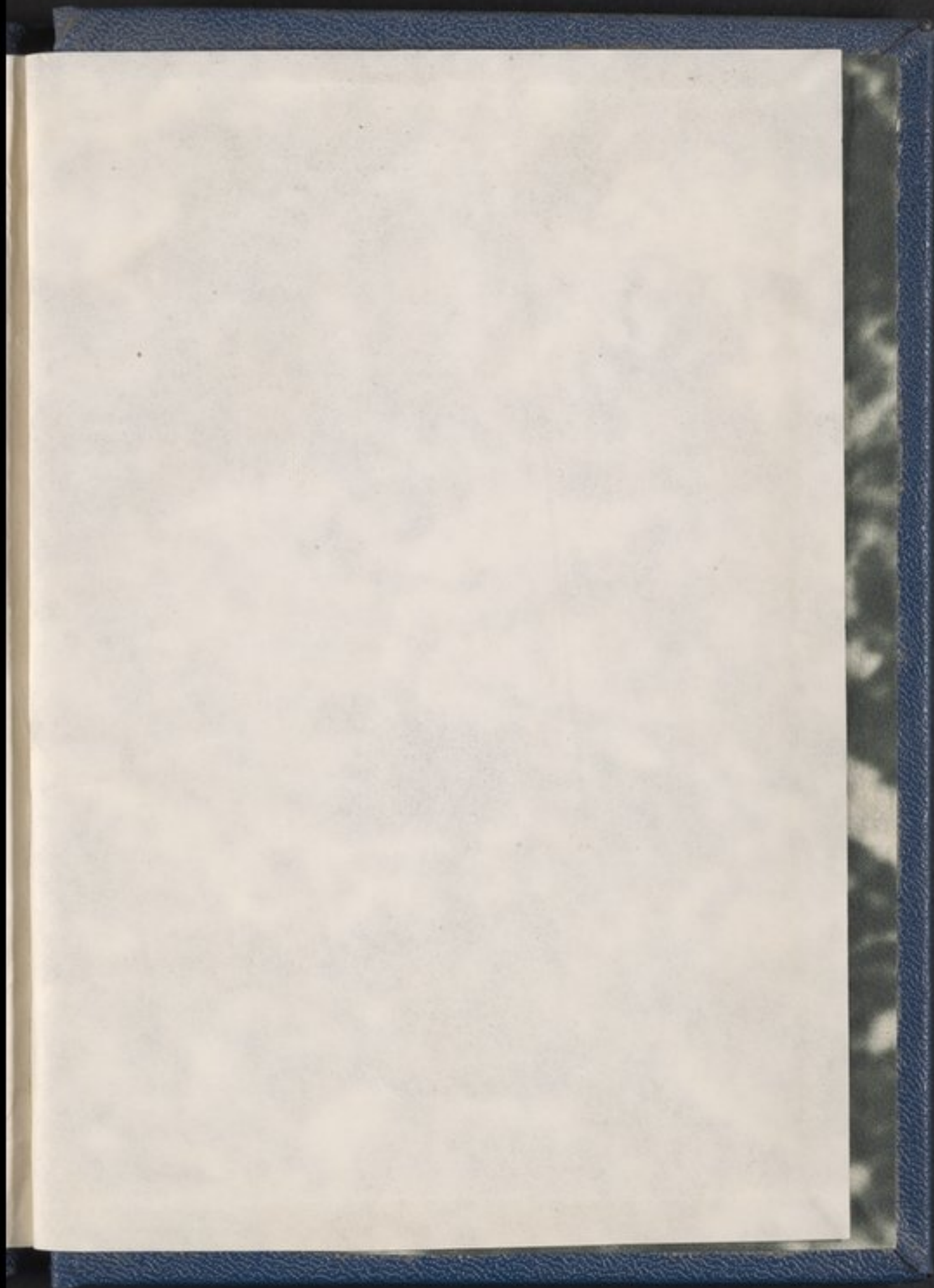
3 8534 00950 9633









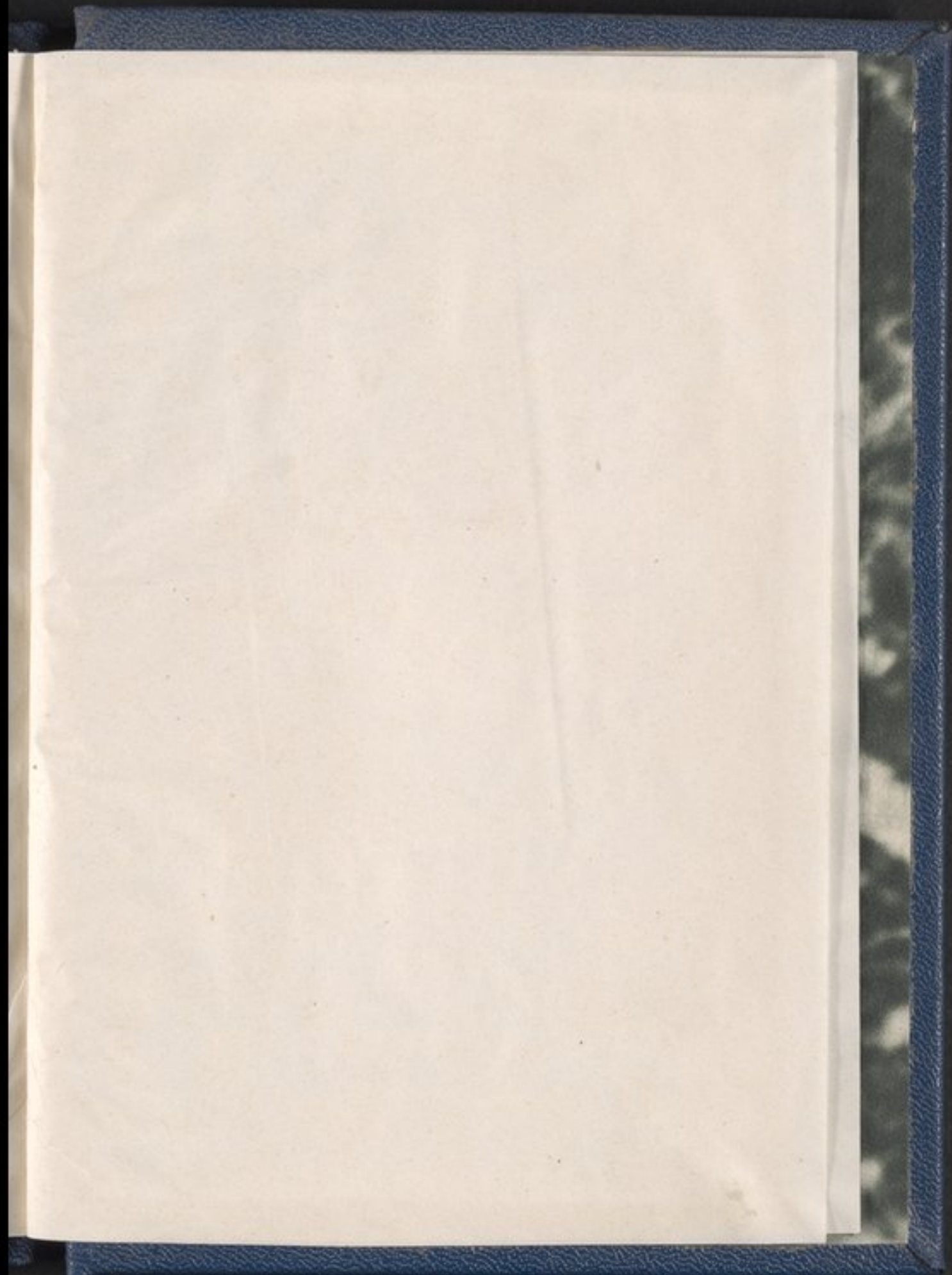




٧٧

قطوف







قطوف

٢



زین

عبد العزيز البشري

al-Bishrî, 'Abd al- 'AZÎZ

Qutûf

AC

106

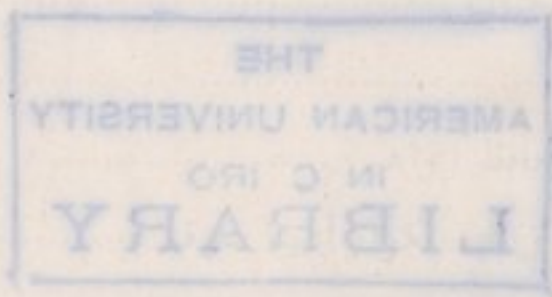
B55

1947

v.2

قطوف

٢



دار الكاتب المصري



الطبعة الأولى . . . ديسمبر ١٩٤٧

نفي

THE  
AMERICAN UNIVERSITY  
IN CAIRO  
LIBRARY

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصري ١٩٤٧

## فهرس

صفحة	
١	بين الأدب والحرب .....
١٩	عبرة العبر .....
٢٧	أسعفوا التاريخ .....
٣٣	قبلة .....
٣٩	مأساة .....
٤٥	مسألة .....
٥١	كيف كان الشبان يزوجون .....
٥٩	كيف كان الشبان يزوجون .....
٦٥	الأدب الفج .....
٧٣	ذكريات - بين وبين حافظ ابراهيم .....
٨١	سهم الأديب في الشرق أن يكون أديبا شرقيا .....
٨٧	عباقرة الفن .....
٩٥	تقاليد الفن في مصر .....
١٠١	فن الحزن .....
١١١	الموسيقى المصرية قديم وجديد .....



فهرس

صفحة

١٩	.....	بلاغه التلحين
٢٥	.....	في السباحة
٣٠	.....	الحكاهون
٣٧	.....	الحكاهون
٤٣	.....	الحكاهون
٥١	.....	مع ذباية
٥٩	.....	عواطف
٦٥	.....	على ابراهيم في المرأة
٧١	.....	أحب اولادى وأكرههم
٧٩	.....	الشحاذون المودرن
٨٧	.....	الكذب الفنى

## بين الأدب والحرب

لا غرو على إذا زعمت أن الأدب ليس مديناً لشيء من الأشياء بقدر ما هو مدين للحروب . هو مدين لها في قوته وازدهاره ، وسعة آفاقه ، وكثرة تصرفه في فنون المعاني وتقلبه في شتى الأغراض . لقد دخل حديث الحروب وأسبابها وما يتصل بها في أكثر أبواب الأدب ، واحتل منها المكان الأرفع ، بماله من شدة القول ، وجزالة اللفظ ، وتلاحم النسيج ، وإشراق الديباجة ، ورقة التشبيه ، وبراعة التخيل . ولك أن تقلب النظر في أبواب الأدب لتدرك كيف أمد حديث الحروب وغذى ، وكيف أعز وأغنى ، وما ولد من المعاني ، واستحدث من الصيغ ، وأجد من رائع الكلام . وإنك لتجرب هذا الحكم بدرجة سواء على أبواب الوصف ، والفخر وما إليه من الحماسة والمديح ، والرثاء والهجاء ، حتى الغزل . وأي شيء لعمري وراء ذلك من أبواب الآداب ؟

ولم يقتصر تصرف البلاغات الحربية على أحد الفنين ، بل لقد شاعت في النظم والنثر جميعاً . وكان في الذروة بالضرورة منها ما جاء به القرآن الكريم ، ويأتي بعد ذلك كلام النبي عليه الصلاة والسلام . وبعد ، فلقد قالت العرب ، وقال المستعربون ، في وصف الحروب



وجياد الخيل ، والسلاح ، ووصف الشجعان ، والخواريين الجبناء ، كما قالوا في الصبر والأقدام ، والمكيدة في الحرب ، والتحفظ من العدو ، وناهيك ما تفاخروا به من الشجاعة وتكاثروا ، وما تذاثوا به من الجبن وتعايروا . وما مدحوا به الحكمة فأبدعوا في الشناء ، وما رثوا به قتلى الحروب فأفلقوا في الرثاء . وذلك إلى ما أثر في هذه الأبواب من حكم الحكماء ، وما سار من أوامر القادة ووصايا الأمراء الخ . . . وإذا كان استقصاء ما قيل في الحروب وأسبابها وما يتصل بها مما يتجاوز جهد الطاقة ، وإذا كان الإتيان على ما جاءت به كتب الأدب والتاريخ والسير مما لا يحتمله مقال ، بل إن محله الأسفار الضخام — فإن من الحق علينا أن نأتي بألوان من النماذج في هذه الأبواب . ولنبدأ ببعض ما ورد في القرآن العزيز :

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ . » (١)

وقال جل وعلا : « كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ . » (٢)

(١) سورة الأنفال . (٢) — البقرة .

وقال : « فَلَئِمُقَاتِلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ . وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . » (١)

وقال : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا . وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . » (٢)

وقال : « وَلَا تَقْدُولُوا لِمَنْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَسْوَاتِ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ، » « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ » (٣) وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُواكُمْ . » (٤)

وقال : « فَقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ، وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَ الذِّينَ كَفَرُوا ، وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا . » (٥)

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِيَانٌ مَرْصُوعٌ . » (٦)

(١) سورة النساء . — (٢) الحج . — (٣) صادقتموهم وظفرتهم . — (٤) سورة البقرة . — (٥) النساء . — (٦) الصف .



« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ  
وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً . » (١)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ  
عَلَيْهِمْ . » (٢)

« فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ  
وَلَنْ يَتْرِكُمْ أَعْمَالَكُمْ . »

« وَلَنَبِّئَنَّاكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ  
وَنَبِّئَنَّا أَعْبَارَكُمْ . »

« فَإِذَا لَقَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا  
أُخِّنْتُمْوَهُمْ (٣) فَشُدُّوا الْوُثَاقَ ، فَإِمَّا بِنَا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً  
حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا . » (٤)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا  
تُوَلُّوهُمُ الْأُدْبَارَ . وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا  
لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَرِّفًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ . » (٥)

« فَإِمَّا تَشْتَقِفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ

(١) سورة التوبة . — (٢) التحريم . — (٣) انقلتموهم بالقتل  
والجراحات . — (٤) سورة محمد . — (٥) الانفال .

لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ . وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيبَانَةٌ فَانصِبْ  
إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ . « (١)

« إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ  
آمَنُوا ، سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأُضْرِبُوا فَوْقَ  
الْأَعْنَاقِ وَأُضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . « (٢)

« يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَأْتَيْنَا هَاهُنَا ، قُل  
لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى  
مَضَاجِعِهِمْ . « (٣)

« إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ  
الْأَيَّامُ نَدَّأُولُهَا بَيْنَ النَّاسِ « (٤)

« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ  
رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ  
آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ،  
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ . « (٥)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ  
مُجْنُودًا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا

(١) سورة الأنفال . — (٢) آل عمران . — (٣) آل عمران .

(٤) آل عمران . — (٥) الأنفال .



نَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ  
وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ  
الْكُفْرَ . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . « (١)

ونختتم ما أوردنا من آي الجهاد بما وصف القرآن به جياد الخيل  
في الغارة ، قال جل مجده وتعالى ذكره : « والعاديات صُبْحًا (٢) .  
فالموريات قدحًا (٣) ، فالمغيرات صُبْحًا (٤) . فأثرن به نقعًا (٥) ،  
فوسطن به جمعًا . »

الله أكبر ! هذه بلاغة تنقطع دونها علائق الأقلام . وليت  
شعري هل يعدل كلام الله كلام !

### في الشجاعة والإقدام

والآن ننتقل إلى ما قيل في الشجاعة والإقدام . ونبدأ بما كان  
من خير الأنام ، عليه الصلاة والسلام :  
روى الإمام البخاري بسنده أن رجلاً سأل البراء بن عازب رضي  
الله عنه : أفررتم يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

(١) سورة الأحزاب . — (٢) العاديات : الخيل التي تعدو في الغزو ، والضبح  
صوت أنفاسها إذا عدت . — (٣) الموريات : القادحات . والايراء : إخراج  
النار . والمراد ما ينقدح من حوافرها . والقذح : الصك . — (٤) المغيرات :  
الشديدات العدو في الغارة . — (٥) النقع : الغبار . والمراد غبار الحرب .  
ويقال له أيضا : الرهج بفتححتين .

قال نعم ! لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر . ثم قال : لقد رأيتته على بغلته البيضاء ، وأبو سفيان أخذ بلجامها ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : أنا النبي لا كذب . وزاد غيره : أنا ابن عبد المطلب قيل فما رؤى يومئذ أحد أشد منه . إلى أن قال : فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين . فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته نحو الكفار .

وعن علي رضي الله عنه قال : إنا كنا إذا حمى البأس ، واحمرت الحدق ، اتقيننا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً . وقيل : كان الشجاع هو الذي يقرب منه صلى الله عليه وسلم إذا دنا العدو لقربه منه .

وقال له أبي بن خلف حين افتدى يوم بدر : عندي فرس أعلقها كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليها . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أنا أقتلك إن شاء الله !

فلما رآه يوم أحد ، شد أبي على فرسه ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترضه رجال من المسلمين ، فقال رسول الله : هكذا . أي خلوا طريقه ، وتناول الحربة من الحارث بن الصمة ، فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض . ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدى منها عن فرسه مراراً . فرجع إلى قريش يقول : قتلني محمد . وهم يقولون : ألا بأس بك . فقال : لو كان



ما بي بجميع الناس لقتلهم ! أليس قد قال : أنا أقتلك ؟ والله لو بصق  
على لقتلني .

وهلك الخاسر في قفول قريش إلى مكة .

ومن أبلغ ما قال الشعراء في الشجاعة ، قول العباس مرداس السلمي :

أشد على الكتيبة لا أبالي      أحتفى كان فيها أم سواها

وقول المتنبي :

شجاع كأن الحرب عاشقة له      إذا زارها فدته بالخيل والرجل

وقول البحنري :

معشر أمسكت حلومهم الأر      ض وكادت لولاهم أن تميدا  
فاذا الجذب جاء كانوا غميوثاً      وإذا النقع ثار ثاروا أسوداً  
وكان الاله قال لهم في ال      حرب كونوا حجارة أو حديداً

وقول آخر :

قوم شراب سيوفهم ورماحهم      في كل معترك دم الأشراف  
رجعت إليهم خيلهم بمعاشر      كل لكل جسيم أمر كاف  
يتحننون إلى لقاء عدوهم      كتحنن الآلاف للآلاف  
ويباشرون ظبي السيوف بأنفس      أمضى وأقطع من ظبي الأسياف

وقول آخر :

الضاربين بكل أبيض مخزم والطاعنين مجامع الأضغان

### في الجهاد والصبر على الشدائد

ومن أحسن ما قيل في فضل الجهاد ، والصبر على شدائده ، قول النبي صلى الله عليه وسلم : « الروحة والغدوة في سبيل الله أفضل من الدنيا وما فيها » و « الجنة تحت ظلال السيوف » و « والذي نفسي بيده لولا أن رجلا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله . والذي نفسي بيده لو ددت أن أقتل في سبيل الله ، ثم أحيأ ثم أقتل ، ثم أحيأ ثم أقتل ، ثم أحيأ ثم أقتل ، ثم أحيأ ثم أقتل » .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم صفين ، وقد قيل له : أتقاتل أهل الشام الغداة ، وتظهر بالعشي في إزار ورداء ؟ فقال : أبا موت تخوفونني ؟ فوالله ما أبالي أسقطت على الموت أم سقط الموت علي ! بقية السيف أئمتي عدداً . وقيل له : إن درعك لا ظهر لها ، فقال : إذا استمكن عدوي من ظهري فلا يبق !

وقال خالد بن الوليد عند موته : لقيت كذا وكذا زحفا ، وما في جسدي موضع إلا فيه طعنة برمح ، أو ضربة بسيف ، أو رمية بسهم . وهأنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير . فلا خامت أعين الجبناء !



وقال عبد الله بن الزبير ، لما بلغه قتل أخيه مصعب : إن يقتل  
 فقد قتل أخوه وأبوه وعمه . إنا والله لا نموت حتفاً . ولكن قعصاً  
 بأطراف الرماح ، وموتاً تحت ظلال السيوف !  
 وقيل للمهلب بن أبي صفرة : إنك لتلقى نفسك في المهالك !  
 فقال : إن لم آت الموت مسترسلاً ، أتاني مستعجلاً . إني لست آتي  
 الموت من حبه ، وإنما آتيه من بغضه . وتمثل بقول الحصين  
 ابن الحمام :

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد      لنفسي حياة مثل أن أتقدما

وهي قصيدة مشهورة منها :

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا      ولكن على أقدامنا تقطر الدما  
 نفلق هاماً من كرام أعزة      علينا وهم كانوا أعقي وأظلماً

وقال جرير :

قل للجبان إذا تأخر سرجه      هل أنت من شرك المنية ناجي

وقال حبيب بن أبي أوس الطائي :

فأثبت في مستنقع الموت رجله      وقال لها من تحت أخصك الحشر  
 وقد كان فوت الموت سهلاً فرده      إليه الحفاظ المرد الخلق الوعر  
 غدا غدوة والحمد نسج ردائه      فلم ينصرف إلا وأكفانه الآجر  
 تردى رداء الموت حمراً فما أنى      لها الليل إلا وهي من سندس خضر

في وصف الحرب

ومن أبلغ ما قيل في وصف الحرب : مشت الفحول ، مشى الوعول  
فلما تصالحت السيوف ، فغرت المنايا أفواهاها . وقول الشاعر :

كان الأفق محفوف بنار      وتحت النار تزيير  
وقول الآخر :

ويوم كان المصطلين بحره      وإن لم يكن حجر وقوف على حجر  
صبرنا له حتى تجلى وإنما      تفرج أيام الكريهة بالصبر  
وقول حسان :

إذا ما غضبنا بأسيافنا      جعلنا المهاجم أعمادها  
وقول التنوخي شاعر اليتيمة :

في موقف وقف الحمام ولم يزغ      عن ساحتيه وزاغت الأبصار  
فقتنا تسيل من الدماء على قنا      بطواهن تقصف الأعمار  
ورءوس أبطال تطاير بالظبي      فكأنها تحت الغبار غبار  
وقول الشاعر :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية      هتكنا حجاب الشمس أوقطرت دما  
وقول بشار :

كان مشار النقع فوق رءوسنا      وأسيافنا ليل تهادي كواكبه



ومن أبدع ما وصف به السيف قول البحترى :

يتناول الروح البعيد مناله	عفواً ويفتح في الفضاء المقفل
ماض وإن لم تمضه يد فارس	بطل ومصقول وإن لم يصقل
يغشى الوغى فالترس ليس بجنة	من حده والدرع ليس بمعقل
مصنع إلى حكم الردى فاذا مضى	لم يلتفت وإذا قضى لم يعدل

وقول ابن المعتز :

ولى صارم فيه النسايا كوا من	فما ينتضى إلا لسفك دماء
ترى فوق متنيه الفرند كأنه	بقية غيم رق دون سماء

ومن أبدع ما قيل في الرمح قول ابن تمام :

أنهبت أرواحه الأرماع إذ شرعت	فما ترد لريب الدهر عنه يد
كأنها وهى فى الأوداج والغة	وفى الكلى تجد الغيظ الذى تجد
من كل أزرق نظار بلا نظر	إلى المقاتل ما فى متنه أود
كأنه كان خدن الحب مذ زمن	فليس بعجزه قلب ولا كبد

ومن أروع ما قيل فى الحرب ، قصيدة أبى تمام التى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب	فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لأسود الصحائف	متونهن جلاء الشك والريب

وهي مشهورة ومنها :

لقد تركت أمير المؤمنين بها	للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحي	يشله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلايب الدجى رغبت	عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة	وظلمة من دخان في فحى شحب
فالشمس طالعة من ذاو قد أفلت	والشمس واجبة من ذا ولم تجب
تصرخ الدهر تصریح الغمام لها	عن يوم هيجاء منها طاهر جنب

### في الجبن والفرار

ومن أحسن ما ورد في صفة الجبن ، والتعير بالفرار والذعر ،  
قول حسان بن ثابت ، رضى الله عنه :

إن كنت كاذبة الذى حدثتنى	فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة لم يقاتل دونهم	ونجا برأس طمرة ولجام

وقال المتنبي :

يرى الجبناء أن الجبن حزم	وتلك خديعة الطبع اللئيم
--------------------------	-------------------------

وقال غيره :

يفر جبان القوم عن عرس نفسه	ويحمى شجاع القوم من لا يناسبه
----------------------------	-------------------------------



وقال آخر :

وضاقت الأرض حتى إن هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

وقال جبان يتحدث عن نفسه :

قامت تشجعني هند فقلت لها لا والذي منع الأبصار رؤيته  
 إن الشجاعة مقرون بها العطب ما يشتهي الموت عندي من له أرب  
 للحرب قوم أضل الله سعيهم إذا دعتهم إلى نيرانها وثبوا

وقيل لجبان في بعض الوقائع تقدم ، فقال :

وقالوا تقدم ، قلت: لست بفاعل أخاف على فخارتي أن تحطما  
 فلو كان لي رأسان أتلفت واحداً ولكن رأس إذا زال أعقما

وقال مثله :

تمشى المنايا إلى قوم فأبغضها فكيف أعدو إليها عارى الكفن

وقيل لأعرابي : ألا تعرف القتال ؟ فان الله قد أمرك به ،  
 فقال : والله إلى لأبغض الموت على فراشي ، فكيف أمضى إليه  
 ركضاً ؟

وقيل لزيد : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأيت  
 شخصاً بالليل فكن للاقدام عليه أولى منه عليك . فقال : أخاف

أن يكون قد سمع الحديث قبلى فأقع معه فيما أكره . وإنما الهرب خيراً .

وقالت عائشة رضى الله عنها الله إن خلقاً : قلوبهم كقلوب الطير ،  
كما خفقت الريح خفقت معها . فأف للجبناء ، أف للجبناء !  
ولقى غلام أعرابياً فاراً من القتال فقال له : كيف تفر يا عم من  
لقاء العدو؟ قال : يا بن أخى ، كيف يكونون لى عدواً وما أعرفهم  
ولا يعرفونى؟

وعير آخر الفرار فقال : لأن يقال : فر لعنه الله ، خير من أن  
يقال : قتل رحمه الله !

وكان أبو حية النميرى من أجبن الناس وأكذبيهم . وكان له سيف  
يسميه ( لعاب المنية ) ليس بينه وبين الخشب فرق . روى بعضهم  
أن جاز لأبى حية حدثه فقال :

دخل ليلة إلى بيته كلب فظنه لصاً . فأشرفت عليه وقد انتضى  
سيفه ( لعاب المنية ) وهو واقف فى وسط الدار ، وهو يقول : أيها  
المغتر بنا ، المجترى علينا ، بئس والله ما اخترت لنفسك . خير قليل .  
وسيف صقيل . لعاب المنية الذى سمعت به ، مشهورة ضربته ،  
لا تخاف نبوته . أخرج بالعفوعنك ، قبل أن أدخل بالعقوبة عليك .  
إنى والله إن أدع قيساً إليك لا تقم لها ! وما قيس ؟ تملاً والله  
لفضاء خيلاً ورجلاً . سبحان الله ! ما أكثرها وأطيها ! فبينما هو  
كذلك إذا الكلب قد خرج ، فقال : الحمد لله الذى مسخك كلباً ،  
وكفانى حرباً !



## في الغزل

ومن أجود ما أوصف صور الحرب إلى الشعراء في باب الغزل  
ما قال المتنبي:

يابنت معتنق الفوارس في الوغى      لأبوك ثم أبر منك وأرحم !  
وقال ابن هاني الأندلسي:

فتطاف لحظك أم سيوف أيبك      وكؤوس خمر أم مراشف فيك ؟  
أجلاد مرهفة وفتك محاجر      لا أنت راحمة ولا أهلوك !  
يابنت ذى البرد الطويل نجاده      أكذا يكون الحكم في ناديك ؟  
وقال الشاعر:

رمتني وستر الله بيني وبينها      عشية آرام الكناس رميم  
ريمم التي قالت لجارات بيتها      ضمنت لكم ألا يزال بهيم  
ألا رب يوم لو رمتني رميمتها      ولكن عهد بالنضال قديم  
وقال عنتره:

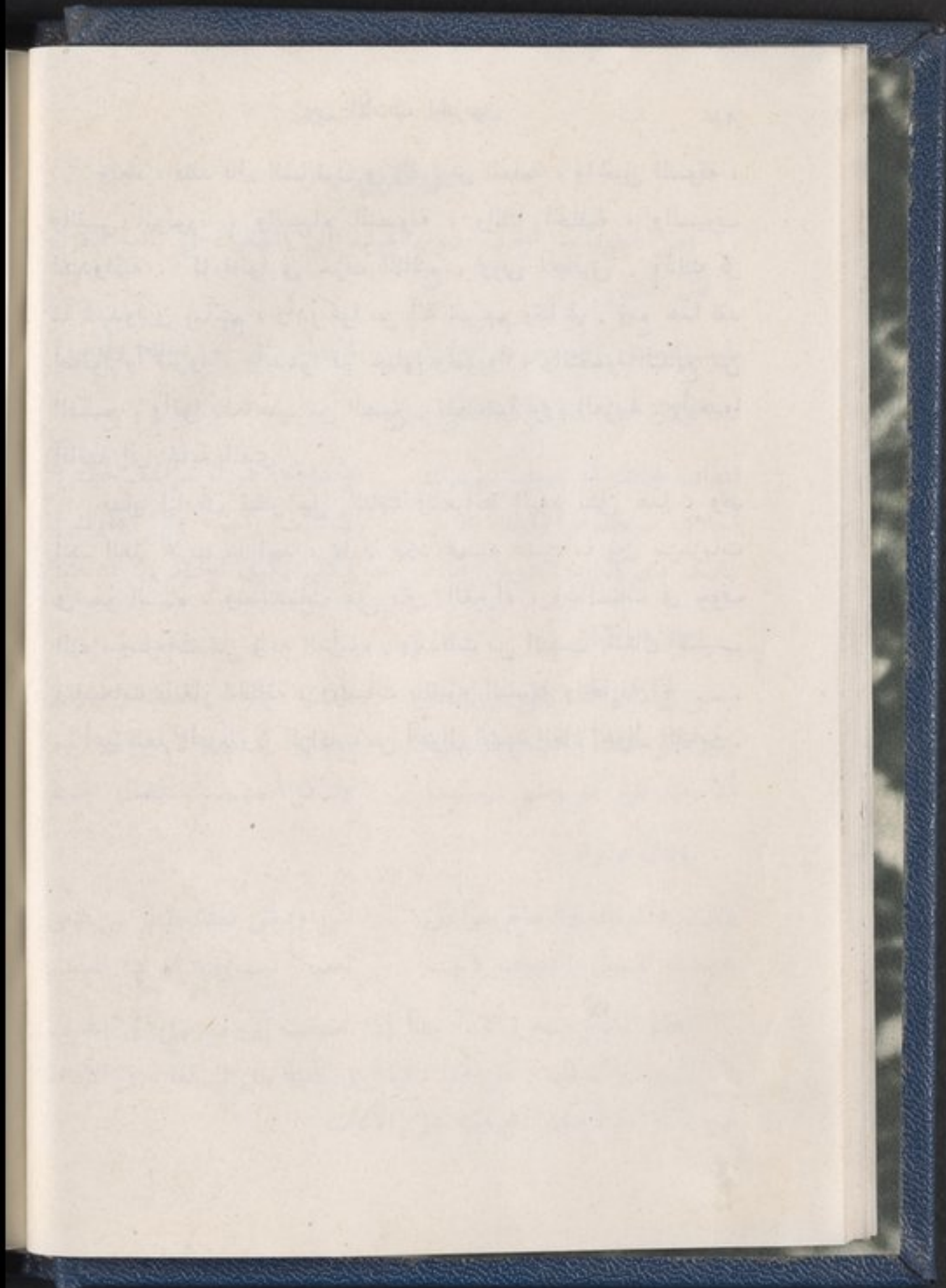
ولقد ذكرتك والرماح فواهل      منى وبيض الهند تقطر من دمي  
فوددت تقبيل السيوف لأنها      لمعت كبارق ثغرك المبتسم

هذه نماذج يسيرة جداً جداً إذا أضيفت إلى ما قيل في الحرب  
وآلاتها وسائر أسبابها . على أنها ، فيما أرى كافية حق الكفاية في الأبانة  
عن مبلغ ما أجدت الحروب على الآداب .

وبعد ، فلقد قال السابقون في الفوارس المعلمة ، والخيل المسوقة ،  
والقوس الموتورة ، والسهام المنصولة ، والقنا الحظية ، والسيوف  
الهندوائية ، كما قالوا في خزف المقاليع ، ورمي المجانيق . وذلك كل  
ما شهدوا في زمانهم ، وأدركوا من آلة حربهم وقتاً لهم . ومع هذا فقد  
أطالوا وأكثروا ، وأبدعوا فيما خيلوا وصوروا ، وانتظموا البديع من  
الفصح ، وآتوا بالعاجب من الصيغ . فضاغفوا ثروة العربية ، وأبعدوا  
آفاقها إلى غاية المدى .

فهل لنا أن ننظر من كتابنا وشعرائنا اليوم مثل هذا ، وقد  
أجد العلم للحرب ما أجد ، مما لا يكاد يحصيه عد ، ما بين مزمزمات  
في جو السماء ، ومددمات على متن الغبراء ، وغائصات في جوف  
الماء ، وسابحات على وجه الدأماء . وقاذفات من اللهب بأمثال الشهب  
وناضحات بالغاز الحارقة ، وراميات بالقنابر الناسفة والخارقة الخ . . .  
ما أعد المعلم المجرم ولا كراته ، من أهوال تشهد العالم أهوال القيامة .





## عبرة العبر

هذه الشمس تطالع العالم بجفنيها من جانب الأفق . وما تلبث أن تسلك منه رويداً رويداً ، حتى يستوى إطارها على متنه . وما تزال في خلال ذلك تضاعف ما ترسل على وجه الأرض من خيوطها العسجدية . وكذلك ما تزال تمطل فيها وتبسطها من الشرق إلى الغرب . وهكذا تظل تحبو في مدرجها إلى قبة الفلك . وكلما خطت بالزمن خطوة ، رأيتها تشتد وترعرع ، ويسطع ضوءها ، ويحمى وهجها إلى أن تبلغ الندوة وتسوى على أعلى الأوج .

وأنت خبير بأنه ليس بعد الصعود إلى الهبوط ، فهذه سنة الله تعالى في كونه ؛ وكذلك تجرى سنته على هذا الكائن العظيم ؛ فليس بعجيب أن يدعو الفلكيون هذه اللحظة ، أعنى لحظة استواء الشمس في أعلى الأوج بالزوال ، إذ كان بدء الزوال ، هو غاية الكمال ! وهذه الشمس تمشي إلى الغرب في منحدرها كذلك رويداً رويداً ، كما تتداخلها الشيوخوخة فألرم رويداً رويداً ؛ حتى إذا كان اصفر لونها ، وبردت السن من جرمها ، جعلت تتسدى في قبرها من مغرب الأفق مستمهلة مستأنية ؛ وهكذا تغيب في لحدها ، غير تاركة من التراث إلا صباية من الذهب المذاب ، سرعان ما تتبخر



في حلك الظلام ، وقد تترك تراثها الغض على صفحة القمر ، يرفد  
العام به بعض ليالى الشهر .

تلك سيرة الشمس كل يوم : ميلاد فترعرع ففتوة ، فشاب  
وفراهة وقوة ، وكهولة فشيخوخة فهرم ، فتدبس في النهاية تحت  
الرجم . وسبحان الحى الذى لا يموت !

على أنها في جميع مراحل حياتها ، عاملة جادة جاهدة ، لا تنى  
عن السعى لحظة واحدة . فها هي ذى تستنبت الأرض ، وتزكى  
الزرع ، وتبسق الشجر وتنضج الثمر ، وتفتح من أكامه الزهر ،  
ثم ها هي تى ، فى عنفوانها ، ما تفتأ تجتذب البخار عذباً سائغاً من  
أجاج البحار<sup>(١)</sup> ؛ حتى إذا انعقد سحاباً ، سح فأخضل قفراً وأعشب  
يباباً . وهذه الأنهار الجارية سموتها فى أقطار الأرض ، تبعث أسباب  
الحياة لكل منتهى للحياة ، وكذلك لا ننسى أنها ما تبرح تعمل  
عامّة النهار ، فى تطهير الأرض مما يعلق بجسدها من الأخبث والأوضار  
فأى عنصر ، لعمرى ، من حياة هذا العالم يمكن أن يغنى عن الشمس؟  
ألا إنها لمصدر الحياة جميعاً ؛ فحق للعالم أن يقول ، إنما الحياة الشمس  
وإنما الشمس الحياة !

(١) كان المعرى ، رحمة الله عليه ، لا يؤمن بهذه القضية : اشتقاق ( العذب  
من أمواه البحار ) ، إذ تراه يقول فى بعض شعره :

وفد يجتدى فضل الفحام وإنما من البحر ، فيما يزعم الناس ، يجتدى  
كما يقول فى بعض رسائله : أو كالأهواء ، فى مذهب لا أعتقده ، وقول  
سواى من يسدده ، يجتذب أجزاء البحار ، فيسقى من تحته عذب الأمطار !

أيتها الشمس ! ما أحسنك وأجملك ، وما أطيبك وأكرمك !  
تعملين لأول الدهر إلى غاية الدهر ، في غير دنى ولا سأم ، ولا ضجر  
ولا برم ، ولا صلف ولا استعلاء ، ولا زهو ولا كبرياء . ولو شاء الله  
لأهلك بجرّك بعض الأقسام ، ولو قد شاء لأهلك بطول حجبتك جميع  
الأنام !

وبعد ، فما أخلق الذين يمسهم حظ من الحجد في هذه الدنيا  
والذين يمسون صدرأ من السلطان فيها أن يبتغوا لسيرهم من سيرة  
هذه الشمس أعلى المثل . فيعملوا كل في محيطه للنفع العام في جد  
ودأب ، مؤمنين كل الايمان أن الموهبة والسلطان إنما ينبغي أن  
يكونا ملكا خالصاً للمجموع لا لأحد من الناس ولا لشيء من  
الأشياء .

على أن مما يفجع حقاً أن كثرة من هؤلاء الذين ينالون مجداً  
ويولون سلطاناً سواء أكان أقام من ثم لهم هذا في جماعة أم في شعب  
أم في شعوب — سرعان ما ينسون كل شيء لأن الأثرة قد ملكت  
من نفوسهم كل شيء . فنفسهم هي المبدأ ، ونفوسهم هي الغاية .  
حتى إذا أجالوا الفكر في منافع الجماعات ، فلا لأنهم يؤثرون لهذه  
الجماعات نفعاً أو يبتغون لها خيراً ، بل لأنهم إنما يطلبون من هذا  
السعي مراماً لأنفسهم لا لشيء آخر ، وقد يكون هذا المرام في أعف  
الصور هو إحراز الحجد . أما ما يقع من خير المجموع ، أو ما يحتمل  
أن يقع ، فليس أكثر من طريق !



وكيفما كان الأمر ، فانه ما يكاد أحد هؤلاء يحس مجده ويستشعر سلطانه ، حتى يورم أنفه ، ويتداخله من الصلف الخيلة ما يملأ اعتقاداً بأن الرأي في الأمر ليس إلا ما يرى هو ، وأن ما سواه لا صلاح له ولا خير فيه ، بل لقد يكون كله شراً وفساداً .

ولقد يشتد ظغيان هذه الخلة على المرء ، فيرى أن الناس لا ينبغي أن ينظروا إلا بعينه ، ولا يسمعوا إلا بأذنه ، بل إنه ليرى أن من العبث الضار أن يجرى فكرهم بغير ما يجرى به فكره ، وأن تنتهي آراؤهم على غير ما ينتهي إليه رأيه . فاذا خالفه امرؤ إلى غير هذا ، كان بين اثنين : إما ملتات ممخرق ، وإما معاند مكابر يجب أن يعجل له سوء العذاب !

وفي الحق أن أكثر من يغمرهم هذا الطغيان ، إنما يرون ما يرون ويفعلون ما يفعلون عن ثبات إيمان ورسوخ اعتقاد ! وما ظنك بمن تطبعهم شدة الأثرة على الايمان بأنهم مبعوثون من لدن رب السموات لاصلاح ما فسد في رقعة من الأرض أو في رقاع الأرض جميعاً؟ فاليهم وحدهم عهد الله بالاضطلاع بهذا المهم . وعليهم وحدهم تقع تبعة التقصير في علاجه ، والراضى في إمضائه وإكماله !

وهؤلاء لا يطلبون الأعوان والأنصار ليعاونوهم بصادق الرأي وصالح المشورة ؛ ولكن ليعاونوهم بقوة المظهر وإمضاء ما قضى به الوحي الذي لا يخطئ أبداً !

فاذا تعاظمت ما يختلف على هذا الرأي من عصور العتو والطغيان

تخرب العاصر ، وتدمر القائم ، وتقفز الأهل ، وتراق فيها الدماء بغير حساب ، وتزهق النفوس لغير سبب من الأسباب ؛ إذا تعاضمك هذا في عصور الدهر المتتابعة ، فاعلم أن علتة تلك الخلة الفاجرة في الإنسان !

وأسمى ، لقد أتمت دورة الشمس حولاً سلكته في عقد التاريخ أيضاً ، واذنت العالم بفجر حول جديد .

وإن ذلك العام المدبر ، وهذا العام المقبل ، لها — كما تعلم — من أعوام الهجرة ، هجرة محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه من مكة إلى المدينة ، وقد ساد بها الإسلام ، فعد بسلطانه الأنام .

وبعد ، فلست بحاجة إلى أن أحدثك عما كان قد غشى الأرض من ظلم وفساد ، وتصدع في النفوس ، وتضعضع في الأخلاق ، حتى كاد يقضى على الأمم بعدم الصلاحية للبقاء . إلى أن بعث محمد من عند الله حقاً ، فبلغ رسالته إلى الناس ، كما أوحى إليه بهاربه حقاً ، فكان ما شهد التاريخ من ذلك الفتح والاصلاح والاسعاد .

ولا أحب أن أطيل في وصف ذلك الاصلاح والاسعاد ، فيحسبهما أن تنزل بآياتهما وحى كريم ، من عند الله العلي العظيم .

وإنما أقف وقفة قصيرة عند سيرة من خلفوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤيد أحد منهم بوحي سماوي ، ولا حبي بالعصمة التي حبي بها الأنبياء ، إنما هم أناس مثل سائر الناس .

وإذا كان خلفاء الرسول قد ارتفعوا على سائر الناس ، فبأنهم



إنما ساروا سيرة هذه الشمس التي تظالعهم كل صباح وتغرب عنهم كل مساء . على أنها هي تعمل لعالم الأحياء والأجرام . أما هم فيعملون لعالم النفوس والأرواح .

يعملون جادين جاهدين ، لا يبتغون من سعيهم نفعاً ، ولا يريفون من ورائه فخراً ولا ذكراً لأنهم أشد أمانة من أن يقتطعوا لأنفسهم أو لذويهم شيئاً مما ينبغي أن يجرد كله للنفع العام .

يعملون لا مستبدين بالرأى ولا مستأثرين ، بل مشاورين مصغين مسرعين ، حتى إذا اتسق لهم الرأى الذى يرون فيه منفعة المجموع ، أسرعوا إلى إرضائه ولو جاء من أصغر الجميع .

أما رأى الجماعة ، فشرع عندهم مشروع وقضاء مبرم محتوم . يعملون صادقين مخلصين لله وللنفع العام . لا كبر ولا نخيلة ، ولا استئثار بمنفعة من المنصب والجاه ، بل ليس عندهم إلا الإيثار والتواضع ، والبرقة للضعفاء . وهيهات أن يؤثروا أحداً على أحد إلا بطاعة الله وما قدم من الخير للمجموع .

ولعمري ، لتلك أعلى صور الديمقراطية التي يحلم بها أجل الفلاسفة من قديم الزمان .

وإذا كان هؤلاء الخلفاء قد انعقد لهم أعظم المجد ، المجد الخالد على الدهر ، فلائهم لم يريقوه ولم يسعوا إليه ، ولم يشغل هو جزءاً من نفوسهم جليلاً ولا دقيقاً !

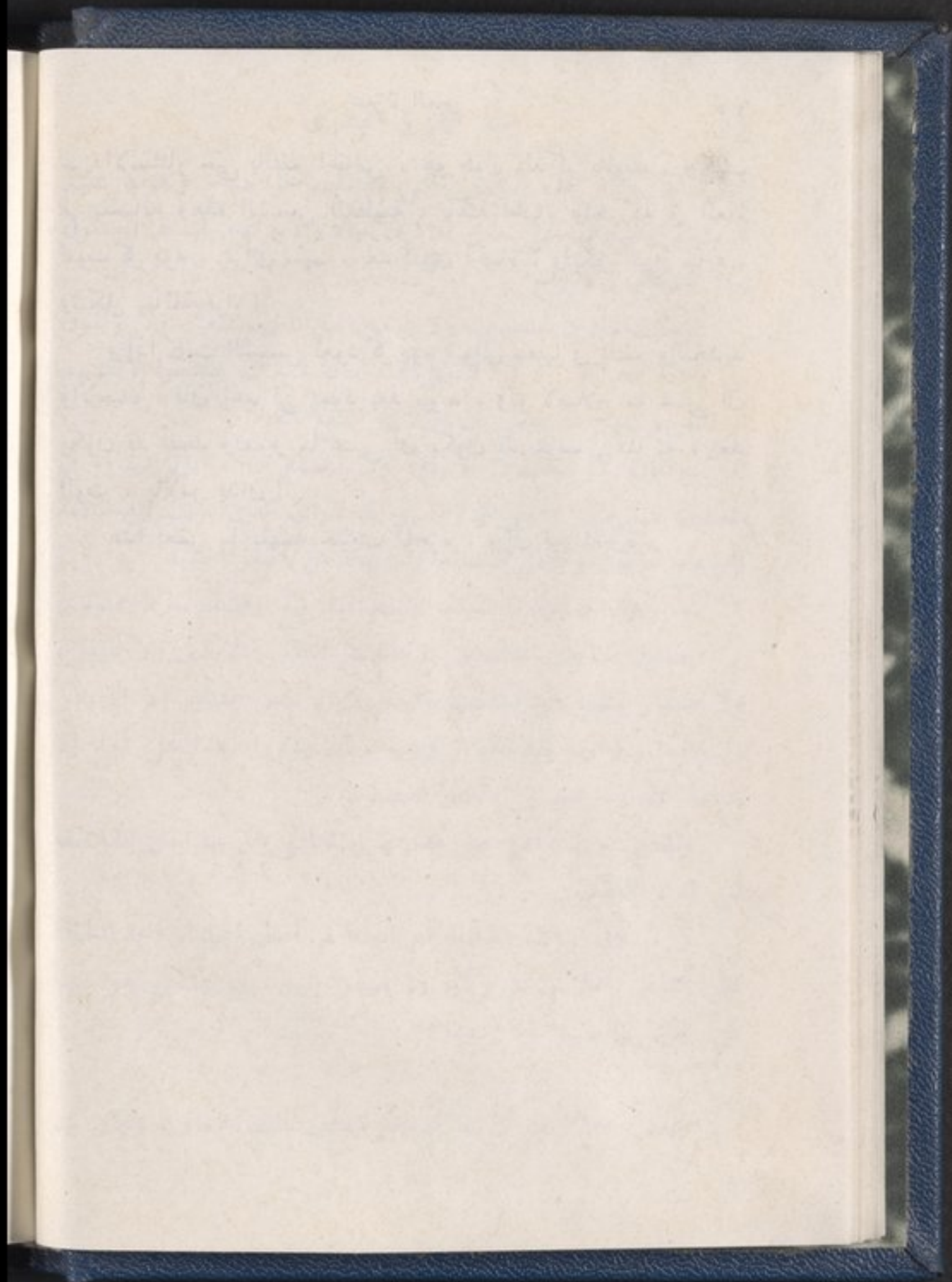
وبعد ، فلا أشك أن مما أصفاهم لطلب النفع العام ، وتجانى بهم

عن الاستئثار حتى بالنفع الخاص ، هو طول الذكر بالموت ، وكيف لهم بنسيانته وهذه الشمس العظيمة ، باعثة الحياة والحركة في العالم تموت كل يوم ، بمراى منهم ، بعد أقوى الحياة ، ولكل شىء نهاية ، ولكل سائلة قرار !

وإذا كانت الشمس تعود كل يوم فتوالى سعيها في النفع والتجديد والأحياء ، فان زعيما لن يعود بعد موته ، ولو لاصلاح ما عسى أن يكون قد أفسد وتعمير ما عسى أن يكون قد خرب . فما له ، بعد الموت ، بالأمر يدان !

هذا بعض ما يلهمه حديث الهجرة ، وإن فيه لعبرة .





## أسعفوا التاريخ

ليت شعري ، لو سألت ، بعد عشر سنين مثلاً ، شاباً ممن سينضحهم العصر يومئذ ، بل لو سألت اليوم شاباً ممن هم في الثلاثين فما دون — أن يجلو عليك صورة من الحياة المصرية ، وأعنى حياة المدن قبل ثلاثين سنة فقط ، فكيف تراه يقول ؟

أخشى ألا يقول شيئاً قط ، لأنه لا يكاد يعرف منها شيئاً قط ! لقد حالت الكثرة الكثيرة من أساليب حياتنا في هذه المدة القصيرة بسرعة لا أحسبها كانت مما يدخل في حساب مؤرخ ولا عالم اجتماعي ، ولا غير هذين من سائر المفكرين . وبحسب المرء منا أن يلتفت بالذاكرة إلى ما قبل أربعين سنة خلت أو ثلاثين ، ويقلبها في نواحي حياتنا لترجع إليه بصفة قوم غير القوم ، وناس لا يكاد يرتبطهم شبه بهذا الناس !

لقد تغيرنا سريعاً جداً في أخلاقنا ، وآدابنا ، وأسلوب سكنانا ، وطعامنا ، ولبسنا ، وسمرننا ، ولهونا ، وغنائنا ، وزواجنا ، وأعراسنا ، ومآتمنا ، وسائر أسبابنا . فلم يبق ثابتاً من ذلك فينا إلا الأقل من القليل . ولا شك أنه كذلك في طريق التطور والتحوير . وكذلك تختفي من الوجود صورة أمة ، لتحل في موضعها صورة أخرى ، إذا قدر لحياتنا قرار قريب .



وإذا كان « لكل سائلة قرار » كما يقول الشاعر ، فلا شك  
 فى أننا نساك الآن برزخاً بين عيشين مختلفين أشد الاختلاف ،  
 مفترقين أبلغ الافتراق ، عيشين لا يكاد يتسع التصور لأنهما لأمة  
 واحدة ، وخاصة فى مثل هذا الزمن القصير !

وليس يتسع هذا المقام ، بالضرورة ، لاستقصاء كل ما تناوله  
 التطور الشديد فى بلادنا ، ويكفينا أن نعرض الآن نموذجاً واحداً  
 يصلح أن يكون مثلاً للجميع .

كان نساء الطبقتين العليا والوسطى ، فى هذا العهد القريب ،  
 لا يتدلين فى الطريق إلا مقنعات محجوبات أمنع حجاب . فلرأس  
 غطاء ، وللوجه غطاء ، ولسائر الجوارح غطاء . بحيث لا يظهر منهن  
 إلا العيون من خلل البراقع ، وأطراف البنان فى قبضهن على مصاريع  
 الملاء .

وكانت هذه الأغطية تختلف باختلاف البيئات . فالسيدة أو الفتاة  
 المتوسطة الحال ، تتلف فى الملاء الغالية نوعاً ، وقد تكون من  
 الحرير ( الكريشة ) . وكيفما كان الأمر ، فهى تلبسها على زى خاص  
 لا ترسلها كما ترسلها نساء الطبقة الدنيا . بل إنها لتضيق على مدار  
 الخصر ، وتضفى على ما دونه حتى الكعبين .

وأما قناع الوجه فالبرقع الأسود ، يرسل من أسفل الجبين إلى  
 غاية الصدر ، ويحلى من وسط أعلاه بحلية من الذهب غالباً ، أو من  
 الفضة الموهة بالذهب أحياناً ، وتدعى هذه الحلية « عروسة » البرقع  
 ولا حاجة إلى وصفها ، فلا يزال يضعها بعض « بنات البلد » .

وأما الطبقة « العثمانلى » فيتخذن ، فى العادة ، الحرير ( الخبر )  
وأما الوجوه فيسترنها بقناع أبيض لا « عروسة » له ولا سواها من  
الحلى ، وربما وضعن بدل القناع « اليشمق » وهذا كان خاصاً بالطبقة  
الأرستقراطية جداً ، لا يشر كهن فيه غيرهن ، وربما اتخذ نساء الطبقة  
الوسطى الحرير ( الخبر ) إذا دعت بعض المناسبات كحضور الأعراس  
والزيارات ذات الخطر .

ولم يكن التجميل بالمساحيق وما يؤدي مؤداها إلا نادراً جداً .  
وأكثر ما يكون ذلك فى الأعراس ونحوها . وكان الإفراط فيه والمداومة  
عليه معيباً ، وكانت السيدة التى تلزمه موضع حديث السيدات  
وإنكارهن ، وكثيراً ما يتخذنها موضعاً للاسماز !

وكيفما كانت الحال ، فإن هذا الضرب من التبهيج ( أعنى تلوين  
الوجوه ) لم يكن ليؤذن به قط لفتاة ، بل لست أغلو إذا زعمت أنه  
كان منكرأ من سيدة ليست ذات بعل . وإن فتاة تفعل هذا لهى  
حقيقة بارسال الألسن وذهاب الأقاويل ، وأقفال بيوت الأشراف  
فى وجهها ، وانقباض المجالس دونها ، وتخرجها بغشيانها !

والآن ، وبهذه السرعة السريعة ، لقد تجرد نساء هاتين الطبقتين  
وفتياتهما من أرديتهن الخارجية جملة . ونضون الأقنعة فلا قناع ألبتة .  
وقصرن الشياب ، وربما حسرن عن الأذرع ، حتى لقد يبلغ النظر  
أعلى الكتف وأسفلها جميعاً . ولست ترى هؤلياء ولا هؤلياء باديات  
فى الطرق إلا كذلك ، وأما صقل العوارض ودهانها بالمساحيق البيضاء



وصبغ الشفاة بالأحمر الفانى أو الأحمر الضارب إلى الصفرة ، فلقد أصبح هذا وأمسى من ضرورات السعى فى الطريق . بل كاد يصبح ويمسى مما تعاب المرأة بتركه ، وتغير إذا هى تخلت عنه !

ولقد تصادفك البنت فى الطريق ، وهى لما تتجاوز الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، وقد صبغت شفيتها بالأحمر صبغاً ، ولا أقول دبغتهما دبغاً ! ولقد كثر ذلك وشاع وفشا حتى أضحي لا يلفت من الناس شيئاً من العجب ، وخاصة عند الناجمين الذين لم يشهدوا الأمهات والأخوات منذ بضع عشرات من الأعوام .

ولقد كان التيار جارفاً إلى حد أن سيدة لم تستطع أن تثبت فى طريقه أو تثبت ابنتها ، وأن رجلاً مهما يكن محافظاً شديد الحرص على التقاليد ، لم يستطع أن يملك عن جرف هذا التيار امرأته أو فتاته . بل إن بروز المرأة اليوم فى الطريق ملففة مقنعة ، هو الذى يسترعى النظر وقد يستدعى العجب !

بل إنك لقد تجدد فى طريقك السيدة وقد ذرفت على الستين أو طعنت فى السبعين ، أى ممن نشأن فى الحجاب ، وتوارين فى شتى الألفاف دهنياً غير قصير . لقد تراهن اليوم سافرات الوجوه ، مبديات ما أبقي المقص من شعر الرؤوس ، بارزات الأذرع والنحور ، مقصرات الثياب إلى ما يتجاوز أعلى السوق . وقد بالغن فى التبهيج والتجمل بألوان الصبغ والدهان !

وأرجو من القارىء ألا يفهم أننى أسوق هذا الكلام على جهة الإنكار ، أو أننى أبغى وعظماً أو أطلب نصحاً . إنما أنا فى هذا الحديث

مؤرخ واصف لا أكثر ولا أقل . أذكر ما كان في بعض أسباب عيشنا من ثلاثين عاماً فقط ، وما صرنا إليه بعد هذه الأعوام . وصفوة القول أننا في هذه المدة القصيرة جداً في مراحل تحول الأمم قد تطورنا تطوراً شديداً ، وتغيرنا تغيراً كبيراً ، ومع هذا فإنه لم تستقر بنا الحال بعد إلى إقرار !

وبعد ، فلقد أصبح من الواجب الحتم ، والحال ما ذكرنا ، أن يشمر جماعة من مشيخة الكاتبيين في تسجيل هذا التاريخ القريب في مدته ، وقد شهدوه وعاشوا فيه ، وعرفوا الجليل والدقيق من مظاهر الحياة في إبانه . وإلا عفت معالمه ، ومحت رسومه ، وعز على الناس بعد أربعين أو خمسين عاماً أن يلتمسوه ويتصوروه كاملاً واضحاً لأنهم لا يجدون إليه السبيل .

ولقد قلت « القريب في مدته » لأنه أضحي بعيداً جداً في شخصه وصورته . وقد أحضرني هذا المعنى قول متم بن نويرة في أخيه مالك :

فلما تفارقنا كأني ومالكاً  
لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

اللهم إن أخشى ما أخشاه أن نتهاون قرب العهد بهذا الصدر من التاريخ الذي شهدنا أطرافه ، فيصرفنا هذا التهاون عن تدوينه وتسجيله ووصف مظاهر الحياة المصرية فيه . ثم يلتفت إليه أبناؤنا أنفسهم ، ولا أقول أحفادنا ، فلا يصيبون في التماسه وتمثله إلا عنتاً كثيراً !



هذا عصر مجد على الكبير وما تقدمه بقليل ، ولا أمعن في التاريخ مستهقراً إلى عهود المالك ، فالأيوبيين ، فالفاطميين فمن قبلهم . أقول : لولا بعثة الحملة الفرنسية ، ولولا المسترلين الانجليزي ، ما عرفنا كثيراً من عادات الأجداد ، بل ما عرفنا ماذا كانت تلبس الحدات !

إن إهمال التاريخ ، لقرب العهد به ، كثيراً ما يجنى على حقائق التاريخ ، وخاصة إذا أعقبته رجات وطفرات كهذه الرجات والطفرات التي جازت بنا . وكادت تأتي على كل شيء من أخلاقنا وآدابنا وتقاليدنا وعاداتنا وسائر أسبابنا .

وإن من رحمة الله بهذا التاريخ القريب أن كان فيه « الفوتغراف » يسجل الصور ، وأن قام فيه « الفونوغراف » يسجل الأصوات ، وأن شاعت فيه الصحافة فسجلت أهم الأحداث . على أن هذا كله لا يغني عن التسجيل البياني يصف ما أخطأته تلك الوسائل ، ويتدسس إلى ما لا تسلكه من بواطن الأشياء .

أرجو أن يشمر بعض مشيخة الكتّاب في هذا ، تفقيهاً لأبنائنا ، وبراً بتاريخنا لا ينقطع على هذه الصورة ، وتيسيراً لسعي المصلحين الاجتماعيين .

## قبلة

قال لي صاحبي في بعض حديثه عن خطبه : « . . . لا أدري  
أكانت أحلى قبلة أصبتها في حياتي ، أم كانت أمر ما ذقت في هذه  
الحياة جميعاً ؟ أكانت ألد ما ظفرت به من لذائذ الدنيا ، أم كانت  
أوجع ما أوجعني وآلم ما برح بي من كل ما لقيته من الآلام والبرح ؟  
أكانت برداً على كبدي وسلاماً أم كانت لهباً وضراماً ؟

« لقد أصبت من جميع ألوان القبل التي يتهاى للمرء أن يصيب ،  
قبلت الأم ، وقبلت الولد في جميع حالاته ، وقبلت الزوجة وغير  
الزوجة . وقبلت الصديق أب من سفر مخوف بعيد . وقبلته وقد أبل  
من علة رجحت فيه كفة الموت على كفة الحياة . على أنني لم أجد  
لذائق هذه القبلة نظيراً ، ولا لطعمها ، بين كل أولئك ، شبيهاً . هي  
غير أولئك كله ، وأشد وأعنف من أولئك جميعاً !

« لقد كانت قبلة طويلة ، استغرقت مني كل معاهد الحس ،  
واستهلكت كل مجامع الشعور ، حتى لو وخزوني بالآبر ، أو لدعوني  
بالنار ، ما شعرت بشيء ولا أحسست شيئاً !

« ثم لا أدري ، بعد ذلك ، أبدلت في هذه القبلة ما كان قد بقي  
من عصارة كبدي وحشاشة قلبي ، أم ترشفت بها ما عوضني عما اعتصر  
من حشاشة قلبي ، وعصارة كبدي ؟



« ثم لا أدري ، أهي التي شاعت في نفسي وملكتها من جميع قطارها ، أم أن نفسي هي التي استألت ، بشدة الوجد ، قبلة من القبل ؟ »  
 « ثم لا أدري ، أكنت أغذو بها حياة أم كنت أستمد منها الحياة ؟ »  
 « وسواء أكان الأمر هكذا أم هكذا ، فلم تكن هناك نفس وقبلة ، فلقد صارتنا شيئاً واحداً ، لك أن تسميه قبلة ؛ ولك أن تدعوه نفساً ! »  
 « يا لها من قبلة هائلة ، ولو كانت أحلى ما التذ به إنسان في جميع هذا العالم ! »

إلى هنا انتهى صاحبي من حديثه الموجه الأليم . وإذا كنت قد بدأت هذا الحديث من منتهاه ، فاعذرنى يا سيدي القارى ؛ فلقد أعداني صنيع قصاص هذا العصر ، فكثرتهم إنما يبدأون القصة من وسطها أو من مآخبرها ، ليعثوا في قرائهم غريزة التشوق والاستشراق فأخذت في رواية هذا الحديث إخذهم ، ونهجت نهجهم .  
 أما أول القصة ، فإن لى صديقاً كريم المنزلة عندي ، أعرف فيه رهاقة الحس ، ووضاعة النفس ، وطيبة القلب ، وشدة العطف ، وهو شديد الكلف بأولاده ، عظيم العطف عليهم ، حتى لا يكاد ينتهي منتهاه في ذلك أحد ، وهو لا يفتأ يدلهم ، ويرفه بكل ما اتسع له الجهد عليهم ، ويسلى بشتى الوسائل عنهم ، وكثيراً ما يستخفه ذكركم حتى في المجلس الجامع لمن يتحشم ومن لا يتحشم ، فيروى من أحاديث كبارهم ، ومن لغو صغارهم ، ما يبالي أظن الناس به ولهاً وعطفاً ، أم ظنوا به حمقاً وسخفاً .

ولقد هاجر هذا صاحبي إلى الريف فيمن هاجروا فراراً بنفسيهم ،  
وعلى الصحيح ، فراراً بولدهم ، ثم انكفأ بهم إلى القاهرة بعد قضاء  
الأشهر الطويلة . ولقيته بعد مقفله ، فاذا هو هزيل مغبر الوجه ،  
فلم أشك في أنه قد لحقته علة . فسألته عن حاله وما به ، فقص على  
لقصة التي سمعت آخرها ، وهماك أولها :

قال صاحبي كان الله له : « هبطت القاهرة لألى بعض العمل .  
وتركت ولدي في أتم خير وعافية ، فرحين بعيش الريف الذي  
لم يعرفوه من قبل . وقضيت في مهبطي ليلتين اثنتين ثم عدت وقد  
حملت إليهم ما أقدرني الله عليه من التحف والألطف ، وكنت طول  
الطريق أتمثل لقاءهم ، ورؤيتهم في هرجهم ومرجهم ، وما عسى أن  
دخل من السرور عليهم . فأجد لذلك لذة لا تكاد تعد لها لذة .  
على أنني ما كدت أن أتخطى عتبة البيت ، حتى رأيت جموداً  
آلفه ، ووجوما لا عهد لي به ، فهولت إلى السلم . وما عرجت بعض  
الدرج حتى سمعت أنيناً مؤلماً يتخلله صراخ مزعج ، فجعلت أطوى  
الدرج مشى وثلاث ، ثم انتهيت إلى مبعث الصوت فاذا صغرى ابنتي  
هي التي تئن وهي التي تصرخ . وإذا من حولها بين باك ينشج  
شيحاً عنيفاً ، وبين حاقن للبكاء إلا ما تنتضح به الجفون ، برغمه ،  
من قطرات الدموع ، وبين واجم شديد الوجوم ، وبين متحير العينين  
من شدة الذعر والهلع !

فسألت في جزع وهلعة عن الخبر ، فأجابني من قوى على الكلام  
منهم : لقد شعرت الفتاة فجأة في أصيل أمس بالأم شديدة في الجنب



الأيمن ، فظن بادي<sup>١</sup> الرأى أن ذلك من أثر برد ، وعلى ذلك عولجت بالعلاجات المنزلية المعروفة ، حتى إذا تقدم الليل واشتدت عليها الآلام جننا من الحاضرة بفلان ، وهو طيب مشهور ، فظل يعالجها ويحاول تخفيف آلامها ، حتى انجلى عمود الصبيح ، ولم تحب البرح ولا خفت الآلام ! ورأيت المسكينة لا تطيق أن تسكن إلى وضع من الأوضاع ، فهي تسأل أن يجلسوها . فما تكاد تجلس حتى تصرخ . وتسأل إرقادها على الجنب الأيمن ، وسرعان ما تصرخ ، سائلة إرقادها على الأيسر وهكذا ! وهي كلما أنت أحسست كبدى تذوب شعبة بعد شعبة ، ويتقطر سلاؤها قطرة بعد قطرة . فاذا صرخت أحسست قلبى يتوثب فى صدرى ، كأنه كرة- تتقاذفها الصبية .

وهى تفتأ تستغيث بمن حولها واحداً بعد واحد ، كأنها تظن أنهم قادرون على أن يرحموها مما تحد ، ويدفعوا عنها هذا العذاب الأليم ! وإنما لتستنجد بى ، فاذا بى أضرع إلى الله تعالى ، وأسأله أن يحول ما بها إلى . ثم أسرع فأستعيد به تعالى من نزع الشيطان . فالله أكرم ، وأبر وأرحم ، من ألا يدفع الأذى عن عبد من عبيده إلا إذا قذف به عبد آخر ؛ وأستغفر الله العظيم !

وتفترق جمهرة الأطباء الذين اختلفوا إليه . فمن قائل إنه التهاب فى المصير الأعور<sup>(١)</sup> ، ومن ذاهب إلى أنه مغص فى الكلية . ومن حائر متردد لا يقطع برأى ولا يرجح شيئاً !

(١) المصير : واحد المصران بضم الميم . وجمع الجمع مصارين بالفتح .

وأطمئن إلى الرأي الثانى ، طوعاً لما قيل : إنه لو كان ثمة التهاب فى المصير ، لظهر من أعراضه كيت وكيت ، وشئ من ذلك لم يظهر ألبتة .

وتعالج على هذا أياماً ، وهى لا تزدد إلا برحاً وآلاماً .  
وفى ذات ليلة من ليالى آخر الشهر سوداء فاحمة قد اشتد بردها ، وللريح عزيف يزعج ويروع ، أسرنى الطيب بأن لا بد من نقلها فى الحال إلى الحاضرة ، لادخالها المستشفى ، فالأمر حتى خطير ؛ إذ لم يبق عنده ، ما جد من الأعراض الحادة ، أى شك فى صحة الرأي الأول . وأقول له : أليس فى نقلها فى مثل هذه الساعة ، وهى على هذه الحال ، وفى مثل هذا الجو ، وقطعها أكثر من اثنى عشر كيلومترا مجازفة ؟ فأجاب : لا شك أنها مجازفة خطيرة ، ولكن مبيتها هنا أشد خطراً !

وماذا عسى أن أصنع ، يارب ، غير أن أطيع ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

وأعد الذاهبون بها والذاهبات من الأهل عدتهم وجهزوا متاعهم ولم يبق إلا أن تحمل الفتاة المعذبة المذعورة إلى السيارة .  
وحين أذن المؤذن بالرحيل ، تغايرت فى نفسى فنون من أعنف العواطف ، منها ما ينطف رقة ورحمة ، ويترقق جوى وإشفاقاً ، ومنها ما يشق الصدر من الأسى شقاً ، ويدق المتن من الجزع دقاً ، ومنها ما يتنظر لى بصور وأشباح تطير الأبواب ، وتمزق الفكر ، وتفقد الصواب أرسخ ذوى الصواب !



جمعت شملي ، وشددت ، على التحطم ، عزمي ، حتى ثبتت على  
السريير صدري ، وقبلتها قبلة التوديع المهول . اه  
وإنما يعنى صاحبي تلك القبلة التي وصفها ، أو التي عجز عن  
وصفها ، وقد قدمت هذا الوصف في صدر الحديث .

فاللهم يا من أذكي في الصدور حب الأبناء إلى هذا القدر ،  
ووكد الرقة لهم في الكبود كل هذا التركيب ، إرحم بفضلك الوالدين  
فانك أنت الرحمن الرحيم .

## مأساة

قال لى صاحبي وهو في بعض حديثه :

... ولم يكن سيد عشيرته فحسب ؛ بل لقد كان زعيم الاقليم كله ، وكان رحمه الله ، ألمعياً شديد الفطنة ، بعيد النظر ، صادق الحكم . يظل القوم في مجلسه يتحاورون ويتناقشون ويتنازعون ، حتى إذا فرغوا من شأنهم جلى موضع النزاع في يسر ، وحكم فيه أعدل حكم .

على أنه كان عصبياً شديداً العصبية ، إلا أنه كان قادراً على أن يأخذ نفسه بالحلم فلا يستفزهُ شيء . بل لقد كان يضحك أو يتضحك مما يغيظ أحكم الحكماء ، ولعل ذهنه كان يزخر بالمعاني ، فاذا أراد الحديث تراحمت على لسانه ، فجعل يضطرب بينها ويتردد حتى ما يكاد يبين !

وداره واسعة متعددة الأبنية ، وهي تقع في حديقة واسعة جداً ؛ وهذه الدار لا تخلو مطلقاً من عشرات الناس في ليل أو نهار . فمن طالب رفق ، ومن صاحب حاجة تدعو إلى قوة المسعى . ومن متنازعين على مال أو على منصب يختصمان إليه . وجميعهم يأكل أحسن الطعام إذا جاء وقت الطعام . ومن طلب منهم المنام فله ذلك . فالدار كما



قلت واسعة ، والفرش فيها كثيرة . وهى ، على الجملة ، كرحبة مالك  
ابن طوق ظلت مضرب الأمثال من قديم الزمان ، وما طالعت هذه  
الدار ، إلا حضرني قول مسلم بن الوليد فى بعض ممدوحيه :

لا يرحلُ الناسُ إلا نحو حجرته كالبيت يفضى إليه ملتقى السبل

وأما حكمه بين الخصوم فهو أمضى من أى حكم نهائى تصدره  
أية محكمة . لأن الخصوم فى ذلك قد يعوقون التنفيذ بشتى الحيل .  
أما حكمه هو فلا تعويق فيه ولا احتيال ، لأن أحداً فى الاقليم  
لا يجرؤ على أن يسر لهذا الرجل عداوة ، فضلا عن أن يصارح بها ؛  
بل إن أحداً لا يرضى لنفسه أن يسوء رأى هذا الرجل العظيم فيه .  
وكان يؤثرنى ويحتنى ويعطف على عطفاً عزانى عن فقد الأب  
أحسن العزاء . ولا يرضى فراقى له إلا مكرهاً . ولولا أننى رجل  
موظف فى الحكومة يؤذنى فى رزقى انقطاعى عن عملى لأسكنى ،  
على الدهر ، ولم يرسلنى أبداً ، فاذا طال إبطائى عنه فى القاهرة بعث  
من يستدرجنى إليه بشتى الوسائل .

وقد بدا لى أنه لا بد كان يلاحظنى وأنا على طعامه لأننى رأيت  
أنه كلما استطببتُ ألوناً من ألوان الطعام فأكثرت الاصابة منه ، قرب  
إلىّ فى اليوم الثانى هذا اللون نفسه ، فاذا هو أطيب وأجود . وهكذا  
حتى يلاحظ إعراضى عنه وإقبالى على غيره .  
أحببته أكثر مما أحببى أو مثل ما أحببى ، فأننى أشك فى أن  
حبه لى وعطفه على مما يحتمل المزيد ! . . .

وفي يوم أسود رجعت من عملي بعد الظهر . وما أن بلغت الدار حتى تقدمت بأعداد غدائي . وكنت جائعاً متعباً . وفيما أنا في الانتظار إذ رن جرس التليفون ، وإذا الأذان بأن الحديث من بلدة كذا ، وإذا المتحدث أكبر أولاده . قال في سرعة : إحضر يا فلان حالا ، فوالدي في حال شديد جداً ، بحيث لا يجرؤ أحد على كلامه أو الدنو منه . فلعلك أنت ، لوضعك منه ، الذي يستطيع أن يستدرجه لحديث وأرجو أن تفرج عنه بعض الفرج . فقلت له : ما الخبر ويحك ! فقال : إن فلانة ، يعني صغرى إخوته جميعاً ، قد غابت وانقطع الخبر عنها من ثلاثة أيام . ولم يُجد البحث والتفتيش وقلب البلاد ظهراً لبطن في طلبها فتيلًا . فهتفت من فوري بأهل الدار أن يمسكوا عن إعداد الطعام ويعدوا حالا جعبة السفر ، وأرسلت في طلب سيارة أبلغتني المحطة في آخر لحظة ، وتدلّيت هناك فاذا سيارة الباشا في انتظاري ، وبلغت الدار . وما كدت أطلع على الحديقة حتى تعاضمني منظر هذه الجماهير من الناس ، شغلت كل رقعة ، واحتلت ظل كل شجرة ، وجزت إلى فناء الدار فاذا خلق كثير جداً ، وكلهم جالس منطرق لا ينبس أحد منهم بكلمة ، وقد اغبرت الوجوه جميعاً ، والباشا جالس على طرف دكة لا يشغلها معه أحد . فلما طلعت على المجلس أوماً إلى أن أجلس بجانبه ، جلّست ، وما سلمت عليه ولا هو حياني ، وأطرقت كما أطرق سائر الناس .

ولقد قلت لك إنه ساكت لا يتكلم ، ولكنه كان في كل فترة يزفر زفرة حرّى ، لقد كانت ولاشك بخاراً من هيب يتسعر في الأحشاء .



وجلسنا على هذا يومين ، وفي الصباح الباكر لليوم الثالث أومأ إلى بأن أسافر ، فنزلت على إشارته ، ورجعت إلى القاهرة لأتى عملي فيها ، ولم أتردد لحظة واحدة في الفكرة التي اعترتني من اللحظة الأولى ، هذه الفكرة التي يوحى بها أبسط واجبات الحب والولاء وعرقان الجميل لهذا الرجل العظيم : وتلك أن أطلب إجازة طويلة أقضيها في القلب في البلاد ؛ باحثاً مفتشاً منقياً عن بنته العزيرة . ولو دعا الأمر إلى التنكر والاضطراب في مختلف الأزياء . ولقد اشتد بي الوجد مما دهمي صديقي العزيز ؛ وقد علت به السن وتشرف على نهاية العمر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !

وقبل أن أترسل إلى غاية هذا الحديث أصف لك وصفاً موجزاً هذه البنت المختفية من بضعة أيام :

لقد كانت سنها بين الرابعة والخامسة ، حلوة جميلة جداً ، بيضاء الجسم ذهبية الشعر ، بالغة غاية الأناقة في ثوبها الغالي الثمين . تراها فتخالها دمية فرت من معرض نماذج ( فترينة ) لغالي الثياب . خفيفة الروح حلوة الحديث ، وخاصة إذا عادت ما يلقي عليها من كلام خيالي يراد به الاطراف والاضحاك . ولى معها في هذا مواقف كلها ضحك وإغراب ! وكانت لذلك تتعلق بي كلما هبطت إلى دارهم . وكنت أحبها كحب ولدي الأعززين . وكانت قرّة عين لأبيها ، وناهيك بأصغر الأولاد ، وخاصة إذا كانت مثل هذه الدرّة في الحلاوة والنقاء .

هبطت القاهرة ، وقد جمعت النية الصادقة الماضية على ما أسلفت عليك ، وسألت الأجازة لشهر ونصف الشهر . ومضى يومان وأنا في انتظار الاذن لي فيها ، على أننى أوالى السؤال بالتليفون كل ساعة ، فاذا مصير البنية ما يزال في الغيب المحجوب . وإذا والدها المسكين على حاله ، ولم يزل يعاني في ذلك العذاب المضمئ الأليم .

وانقلبت إلى الدار في اليوم الثالث قافلا من عملي ، وتقدمت باعداد غدائي ، فاذا جرس التليفون يرن وإذا ولد صاحي يدعوني ، في فرح ظاهر أن أحضر لأهني أباه الشيخ ، فلقد عثر على أخته فلانة ، والحمد لله ، فقلت مسرعاً وكيف عثر عليها ، وأنى كان ذلك ؟ قال : لقد أمر وزير الأشغال ، حين انتهى إليه احتمال غرقها ، بتجفيف بحر ( كذا ) . وكذلك ألفينا جثتها في الموضع الفلاني ( وهو يقع على بضعة أميال من الدار ) . وقد أكرمها الله تعالى . فلم ينل من جسمانها السمك كثيراً ولا قليلاً .

وأسرعت باعداد جعبة السفر ، وخففت إلى لقاء صاحبي ، فاذا جموع كثيرة ، تلغو وتتناول ، في مرح واغتباط ، وإذا صاحبي يظهر عليه طيب النفس وانبساط أسارير الوجه . ولم يكديراتني حتى خف للقاء في بعض طريقي إليه . وما أن توافقنا حتى عانقني وجعل يقبلني وجعلت أقبله وأنا أشعر أن الدنيا لا تكاد تسعه من سرور ومراح !

ثم جعل يحدثني ، كعادته ، أحاديث هذه الدنيا ، حتى إذا انصرف الناس من مجلسه ، قافلين إلى ديارهم أو ثاوين ، في داره ،



إلى فرشهم ؛ وحينئذ جذبني إلى حجرة جلوسه الخاصة ، ودعا بالترد ،  
ورحنا نتلاعب به إلى ما بعد انتصاف الليل ، وهو كلما انتهى دست  
يقبل على بحديث طريف ، على أنه لا يلم بشيء من حديث بنته  
الغرقى لا من قريب ولا من بعيد !

الله أكبر ! الله أكبر ! إذا لم يكن هذا الوجد كله ، ولا هذا  
الوله المرعب المهول من أن البنت قد أدركها الغرق أو أنها ماتت  
على أى شكل من الأشكال ، وإنما الجزع كله من أن تعيش في ولاية  
خاطف مجرم من النساء أو الرجال !

ترى ماذا عسى أن يكون مصير الفتاة ؟

هنا تتطاير أشأم الظنون كل مطار . وهنا يغلى صدر هذا الطود  
غليان القدر ، حتى لتكاد تتصدع الأضلاع ، لولا ما كان يروح عنها  
من ذلك الزفير ، تتنفس به نار السعير !

لقد أصابها منية . وإذا لقد سلم الشرف ، وحبه ، فالشرف هو  
كل شيء في هذه الحياة !

أكرمك الله ، يا حبيبي ، ميتاً ، كما أكرمك حياً . وأمتعك  
بملاعبة ابنتك الحلوة في دار النعيم .

وهنا جعل صاحبي يبكي وينشج حتى لم يعد يقوى على كلام .  
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وإنا لله وإنا إليه راجعون !

## مسألة

نحن ضعاف ، ما في هذا شك . والغريون أقوياء ، وما في هذا شك أيضاً . وإنا لنبغى أن يكون لنا مثل حظهم ، أو جليل من حظهم من القوة والعظمة ، ولكن كيف السبيل ؟ اللهم إن السبيل واضحة لا عوج فيها ولا أود . هي أن نأخذ إخذهم ، ونسعى سعيهم ، ونحذو في وسائل الحياة حذوهم . وبذلك نبلغ كثيراً مما بلغوا إذا لم يقدر لنا أن نصبح مثلهم . وأرانا ، بحمد الله ، فاعلين ، بل أرانا في هذا جادين جاهدين . ها نحن أولاء نتعلم علومهم ، وننقل فنونهم ، وتروى ما تنتضح به قرائعهم في آدابهم ، ونمرن أيدينا في تقليد صناعاتهم . ونهيج في تجارتنا نهجهم ، نستن في أسبابنا المالية والاقتصادية سبلهم ، ونطبع جيشنا على غرار جيشهم ، ونعد من آلات الحرب ما يعدون لأنفسهم ، ونجرب في أنظمة الحكم وسياسة الجماعة على طرائقهم ، ونشيد دورنا على طرز دورهم ، ونتخذ لها من الأثاث كل جديد من أثاثهم ، ونتزي بأزيائهم ، ونتخلق بأخلاقهم ، ونتأدب بآدابهم ، ونصطنع عاداتهم ، ونفكر على أساليب تفكيرهم ، ونسلك في فنون النقد مسالكهم . والخلاصة ، أننا بتنا نقلدهم في كل كبير وصغير ، ونترسم أثرهم في كل دقيق وجميل ،



لا نستثنى على هذا إلا بعض ما تحتمه علينا قواعد ديننا في زواجنا وطلاقنا ، وما إلى ذلك من أسبابنا ، وإلا ما لا تزال تمسك علينا العادات المستأصلة من آلاف السنين ، حتى كادت بذلك تتصل بالخلق ، وتلصق بالطبع . على أنها في طريق التحول والنحول ، ولا بد لها يوماً أن تحول .

نحن صائرون إلى حياة غريبة لا شك فيها . وما لم نأخذه منها لنفعه ، ونحاذيه ابتغاء ثمرته ، أخذناه جرياً على سنة الطبيعة في تقليد الضعفاء للأقوياء ، ومحاكاتهم — بظهور الغيب — لم دون تمييز بين ما ينفع وما يضر ، ولا نقد لما يسوء مما يسر .

نحن صائرون في عامة أمورنا إلى هذا العيش ، مالنا إلى غير ذلك حيلة ، وإن شئت قلت مالنا من ذلك بد ! على أن هنا أمراً جليل الخطر ، أو على الأدق من أجل الأمور خطراً ، قد سقط في هذه الوثبة من حسابنا ، وأخشى إذا هو تخلف أن تكون مشيتنا في حضارتنا الجديدة عرجاً ، وكيف للأعرج بمسيرة المغذين الأقوياء ؟

فقد رأيت أن كل عناصر الحياة عندنا غربي خالص ، اللهم إلا عنصراً واحداً لا غناء عنه ولا سداد بدونه . ومن ينكر أن اللغة من مقومات حياة الأمم ، فهو كمن ينكر الشمس في وضع النهار كما يقولون !

كل سبب من أسبابنا أضحى غريباً ، وما لم يستغرب بعد فهو ولا مرأى في طريق الاستغراب ، اللهم خلا اللغة ، فلغتنا ما برحت العربية التي تحدث بها الجاهليون من آلاف السنين !

إذاً ، أبات علينا لكي يتسقى أمرنا ، ويستقيم منطلقنا ، أن تنضو عنا لغتنا ، كما ينضى الثوب الخليق ، ونتخذ للساننا لغة غريبة تستطيع أن تحيا مع هذا العيش الجديد ؟

لست ، علم الله ، أمازح ولا أعابث . فان المقام من الجد الذي لا يحتمل العبث ولا المزاح !

هناك علوم تستعب جميع سبل الحياة . وهناك فنون منها ما يتصل بصلب العيش ، ومنها ما يسعى للتسلية والترفيه والتنعيم وهناك آلات وعدد ، وهناك مصنوعات لا يملكها عدو ، وهناك ما لا يحصى من المستحدثات التي أصبح لا غنى عنها للناس ، أستغفر الله ، فانما أعنى المتحضرين من الناس ، لا غنى لهم عنها في قضاء لباناتهم وتناول جميع أسبابهم .

وهذه العلوم والفنون ، وهذه الآلات والعدد ، وهذه المستحدثات التي لا غنى عنها لأحد ، هذه كلها أصبح طلبها والتفقه فيها وتجويدها كما يجودها أهلها هو همنا وشغل نفوسنا ومرامنا الأقصى ، ومثلنا الأعلى فكيف لنا بها ولغتنا لا تحيط بها ، بل لا تكاد تلم منها بكثير ولا بقليل ؟

لقد كانت لغتنا لغة العلوم والفنون التي جاءت بها حضارتنا ، فلما عفى الزمان على هذه الحضارة عفى على اللغة كما أتى على تلك العلوم والفنون . ونحن الآن إنما نطلبه علوماً جديدة ، وفنوناً حديثة ، ومبتكرات طريفة . ولكل منها في الافرنجية اسم ، ولكل منها تعبير



يؤديه في غير عسر ولا اتواء . فكيف لنا بهذا كله ولغتنا ، كما  
عرفت ، في هذا التقلص والانقباض ؟

لا بد لنا من تناول العلم والفن ، ومن تناول وسائل الرقي والقوة  
والعظمة جميعاً . وتناول هذا في غير لغة ضرب من المحال ، وتناوله  
في لغة قاصرة من معضل الأشكال !

وهنا تنصدع الآراء ، وتفترق الطرق : فقوم منا يذهبون إلى  
أخذ العلوم والفنون وسائر حاجات الحضارة في لغاها ، وتناولها في  
أسماها المعروفة ومصطلحاتها المقسومة في تلك اللُّغى حرصاً على سلامة  
العلوم والفنون ، واختصاراً للزمن ، وتوثيقاً للصلات بيننا وبين  
الحضارة في بلاد الغربيين . وأرفق هؤلاء من يقولون بالتعريب  
في كل شئ ، حتى فيما له تعبير عربي قديم !

ويخالف هؤلاء آخرون إلى وجوب تناول كل شئ بالعربية الصميمة  
لا أثر فيها لأي استعجام مهما يكن المعنى مما لا عهد للعربية به في يوم  
من الأيام .

ينبغي أن يكون كل شئ عربياً مخلصاً . فإذا كان بين أصحاب  
هذا الرأي مسرف في المرونة والترخص رضى بأن يصار إلى التعريب  
إذا عيت وسائل العربية جميعاً باصابة المعنى المطلوب . وهيئات أن  
تعي في ظن الأكثرين .

وهؤلاء إنما يذهبون هذا المذهب ، ويتشددون هذا التشدد  
إيماناً منهم بأن اللغة من أقوى مقومات الأمة ، ومن أخص شخصاتها  
فإذا هي حالت ذهبت الأمة ولم يبق لها بين سائر الأمم كيان . وإذا

كانت الأفرنجية هي لغة العلوم والفنون وسائر أسباب الحضارة ،  
ولم يبق للعربية إلا تناول التافه في الأسباب الدائرة بين الناس ،  
فقل العفاء والسلام ، على لغة القرآن ، لغة الاسلام ! وعلى الجملة ،  
فاننا لو ذهبنا مذهب أولئك المعربين لأضحت لغتنا والمالطية بمنزلة  
سواء ، والعياذ بالله !

في العلوم والفنون والمستحدثات من مختلف الأشياء ، وللنبات  
والأزهار مئات الآلاف من الأسماء والصيغ والمصطلحات . فاذا نحن  
عربنا هذا كله طغى أشد الطغيان على سائر اللغة . وأنت خبير بأن  
ما يدور من صيغ العربية على السنة نصحاء الخطباء ، وأقلام بلغاء  
الكتاب ، وما يتحدث به الخاصة في مجالسهم ، ويجري في مقاولاتهم  
ومحاوراتهم ، وما تنتضح به رسائلهم — كل ذلك لا يزيد على بضعة  
آلاف . وكيف لهذا بأن يقوم بازاء ذلك ؟ بل كيف له بأن يعيش  
بجانبه ، ويحقق ما تحقق اللغات لها من كيان ؟

هذه هي المسئلة كما يقول شكسبير ؛ فليت شعري ماذا يكون  
المصير ، فاللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير .



Handwritten text in Arabic script, consisting of several lines of prose.

Handwritten text in Arabic script, continuing the narrative or discourse.

Handwritten text in Arabic script, further down the page.

Handwritten text in Arabic script, showing a change in line length.

Handwritten text in Arabic script, forming the bottom section of the page.

Vertical text on the right margin, likely a reference or index.

## كيف كان الشباب يُزَوِّجون

١

أسوق حديثي هذه المرة للخطبة والزواج في مصر إلى مؤخرات الجيل الماضي . ولقد أعرض عليك صوراً ما برح بعضها قائماً إلى الآن ، وبعضها وإن اختفى فانه ما زال متمثلاً للاذهان . وذلك أنني أحب أن أعرض مجموعة كاملة واضحة من صورة الخطبة والزواج قبل أن تحول ، أو تعثرها الأيام بالنصول .

وتراني في ترجمة هذا الحديث قد عبرت بصيغة البناء للمفعول ، فقلت : « كيف كان الشباب يزوجون » ، ولم أقل : « كيف كانوا يتزوجون » . وإني لأقصد هذا وأعنيه ، لأن الشباب لم يكونوا يتزوجون ، وإنما كانوا يزوجون ، لا رأى للشباب أو للفتى في متى يتزوج ، ولا كيف يتزوج ، ولا بمن يتزوج . وإنما يزوجه أولياؤه فيتزوج ، « وكان الله يحب المحسنين ! »

كان الزواج مرحلة من مراحل الحياة لا بد للشباب منها ، مهما تكن الأحوال . كان شيئاً لا بد منه ، ولا محيص عنه ؛ اللهم إلا لنقص داخل على الحلقة ، وهذا من النادر الذي لا يجري على سياقه الحكم العام .



فاذا ترعرع الفتى وبلغ الحلم ، جعل أهله يفكرون فى أمر تزويجه وأكثر هؤلاء همأً بذلك وحديثاً فيه وتديراً له هو أمه . تبادى به أباه ، ولا تنى عن مراجعته فيه ، والالحاح عليه فى التعجيل به . وكلما اعتل عليها بعلة ، أو أنهض لها فى التأخير عذراً ، هونت عليه الصعب ، ويسرت له العسير . فاذا كان العذر فى قلة المال ، وكان هذا هو أبلغ الأعذار وأشيعها ، عرضت بيع أعلقها وحليها ، فاذا لم يكن فيها غناء ، ففى بيع « حصاة » من البيت ، أو فى الاقتراض غناء !

تريد الأم أن « تفرح » بولدها وتزوجه من أى سبيل . وهنا ينبغى أن تعلم على جهة اليقين أن تعلم الولد أو انقطاعه عن الدرس ، أو نجاحه فى أى ميدان من ميادين الحياة ، أو فشله ، أو اشتغاله بأى عمل من الأعمال ، أو تفرغه أو تبطله — إعلم أن شيئاً من هذا لا يدخل ، ولا يجوز أن يدخل فى حساب تزويجه ، أو يقام له أى وزن فى هذا الباب . ذلك بأن تزويج الشاب أو الفتى ، كما أسلفت عليك ، مرحلة لا بد منها فى اجتياز مراحل الحياة !

ولعل أهم ما كان يسهل أمر زواجه على والديه ، أن الزوجة لا تكاد تجشم أولياءه شيئاً من النفقة ، فهى تسكن فى دارهم ، وتأكل مما يأكلون منه ، وتشرب مما يشربون . فاذا كانت مطالع الأعياد جيئت بكسوة لا تُعيب على رب الدار فى كثير ولا فى قليل !

وكيفما كان الأمر ، فاننا إذا استثنينا مهر العروس ، وما إليه من الهدايا والألطف ، وإذا استثنينا معه نفقات العرس وأسبابه ، فان

هذا الضيف الجدير لا يجشم وظيفة دائمة ، ولا نفقة راتبة ، أو على التعبير الافرنجى ، لا يكلف أى *consommation* . ولا تنس ، مع ذلك ، أنها ستقوم بنصيب جليل فى خدمة الدار ، إن لم تستقل بها جميعاً : كالعجن والخبز ، والطبخ ، وغسل الثياب ، وجندرتها ، وكنس الدار ، ونفض الأثاث ، وصنع القهوة وتقديمها للضيقات الخ . . . . .

وقد يكون من قسمها أيضاً القيام على خدمة الصغار من أخوة الزوج وأخواته ، إذا كان له أخوة أو أخوات صغار !

### الخطبة

وفى النهاية سيرضى الأب بتزويج ابنه وأنفه فى السحاب ، أو أنفه فى التراب ! وسرعان ما تذكى الأم الخطابيات ، محترفات أو صديقات ، فى التماس العروسة الحلوّة فى بيوت الأكفاء . حتى إذا عدن إليها بالخبر ، أرسلت إلى أم العروس من تعين معها موعداً لرؤية فتاتها . وفى هذا الموعد تمضى الأم وبناتها المتزوجة وأختها ، وقد تستصحب بعض جاراتها من صاحبات والمواليات . ولا تسقط من عدة الوافدات الخطابية المحترفة ، إذا كانت الريادة لخطابة محترفة ، يمضى كل هؤلاء إلى دار العروس ، وقد أخذن زينتهن ، وتحلين بأعلى حلين ، وأضيفن عليهن برود الخبر ، فاذا لم يكن لمن شئ من ذلك ، استعرنه من بعض الصديقات المترفات .

ويحسن بنا ، وقد بلغنا هذا الموضوع ، أن نسلخ بعض الحديث



للفتاة المخطوبة ، قبل أن ينالها الوافدات بالتوسم والتصفح والقياس والتقليب .

قل من كانوا يدفعون بناتهم للتعليم في المدارس ، بل لم يكن هناك تعليم مدرسي للبنات ألبتة قبل خمسين عاماً ، أى قبل قيام المدرسة السنية ، فالطبقة الأرستقراطية كانت تعلم بناتها في القصور . أما الطبقة الوسطى ، وهى الطبقة التى ندير عليها الكلام فى هذا الحديث ، فأكثر أهلها كانوا يشخصون بناتهم الصغار إلى « المعلمة » وهذه « المعلمة » امرأة تخطط الثياب لمن شاء من أهل الطبقتين الوسطى والدنيا ، وتتخذ من دارها شبه مدرسة تعلم البنات فيها هذه الصناعة بقدر . فإذا ربت الفتاة وبلغت سن المراهقة كفها أولياؤها فى الحذر تعالج فيه مع أمها شؤون البيت . ولا تزال كذلك فى انتظار « العَدَل » و « العَدَل » بفتحيتين ، يعنى به النساء الزوج الكفء ، الذى يكفل ويغنى ، ويسعد ويهني . ومن هذا الوادى قولهم : « ربنا ما يعطى القحف عدل » . يدعون على الجلف الوضيع اللفظ بالألا يمكنه الله من جاه ولا سلطان ، لأنه إنما يتخذهما أداة للسلطة والعدوان !

يتلقى أهل البيت الواردات بأحسن مظاهر التأهيل والترحيب . وقد سبقوا فنظفوا الدار وأحسنوا تنضيض الأثاث . ودفَعوا فئاتهم إلى الحمام فأحسنوا جلاءها وصقلوا عارضيتها ، وقلموا أظافرهما ، ورتلوا شعر رأسها ، ومشطوه ، ونضدوا على الجبين مقدمه ، وضمفروا سائرته ضفيرتين . ثم ألبسوها أجمل الثياب ، وحلوها ما أعابوا من لبآت وأساور وأقراط وخواتم .

ويبدأ بتقديم « الشربات » تطوف به امرأة أو شابة أو فتاة من فتيات الدار ، أو خادم من خدمة البيت ، أو من خدم الحجار . ثم لا تزال الأنظار تطلع إلى ناحية الباب ترقباً لطلعة العروس . ثم إذا هي مقبلة تمشى على استحياء ، وقد أسبلت جفنيها ، وهي تحمل فنجان القهوة تقدمه إلى السيدة الكبيرة أولاً ، ثم تعود بالثاني إلى الثانية ، وهكذا . والأنظار تتناهبها من كل جانب : هذه تتوسم وجهها ، وهذه تتفقد عنقها وصدرها . وأخرى تسرح النظر في شعرها ورابعة تلاحظ خطوها لعل فيها ظلماً أو شكاً<sup>(١)</sup> لا يدعن في جسمها رقعة إلا أوسعها تفقداً وتصفحاً وتأملاً . ولا يفوتهن ، مع هذا ، أن يلاحظن مبلغ مهارتها في حمل فنجان القهوة ، وكان كما تعلم ، يعتمد على ظرف دقيق القاعدة . فاذا أبلغته ولم تسلم منه ، على امتلائه ، قطرة ، كان دليلاً على المهارة وحسن الخدمة أى دليل !

فاذا فرغن من هذا دعونها إلى الجلوس ، فجلست على طرف كرسى في طرف الغرفة ، في خفر بعضه متكف مصنوع . ثم رحن يستدرجها إلى الحديث ، لعل في لسانها حبسة أو عقدة أو رتة . أو لعل في بعض لفظها لئمة ، فاذا اطمأن على سلامة اللسان ، ونصاعة الأسنان ، ظلن برهة يسيرة يمتدحن فيها جمال الفتاة وحسنها ، ويشدن بأدبها ولطف موردها . ثم استأذن في الانصراف ، وأقبلن على أمها وسائر من حضرن مسلمات مودعات مقبلات ، وأذكين على الفتاة أدقهن

(١) الشك الظلع الخفيف .



حسباً وأنفذهن أنفأ ، فأنفلتت إليها تحيبتها وتبالغ في تدليلها وإعزازها ، وإظهار الحب لها والكلف بها ، وراحت توالياها ( تحت هذا العنوان ) تقبيلا وضما ، والتزاماً وشما . وهي إنما تفعل في تمهر لا يخفى زيفه على أحد ، قصداً إلى تشمم فيها لعل فيه بخرأ ، وأبطها لعله يفوح دفرأ . ولا تألوها نساءً ومسأ ، وغمزأ وجسأ ، طائفة باليد على جوارح الجسد ، لعل منها ما عراه الرهل أو أصابه الأود !

ولربما طفن من غدهن بيت فلان وبيت فلان ، ثم بعد غد بيت فلان وبيت فلان ، حتى يستعرضن السوق كلها وينثلن الكنانة نثلا ، ما يدعن فيها سهماً ولا نصلاً !

ولربما رجعن إلى بعض من وردن لاعادة النظر ، أو على الأصح لاعادة الفحص والتنقيب ، والامعان في الفر والتقايب ، ما يرى أولياء الفتاة بذلك بأساً ، ولا يجردون في أنفسهم منهم حرجاً ! فاذا أذن الله واجتمع الرأي على فتاة من هؤلاء ، خطبت إلى الأم أولاً . فاذا اتفقت الأمان على المهر وإلا صار الأمر إلى الأبوين ومن إليهما من الأولياء . ولربما استعان ولى الزوج بعض الظاهرين من الجهة على ولى العروس في سبيل الخط من مقدار الصداق المطلوب . فاذا لم يبق موضع لخلاف من هذه الناحية ، قرأ الجماعة فاتحة الكتاب في خفوت تبركا واستكمالاً لفضل الله العظيم . وكذلك يشيع بين نساء الحى وفتيانه أن فلانة قد قرئت فاتحتها . وليس وراء الفاتحة إلا قبض مقدم الصداق ، فالعقد في الأعراس . يتخلل هذه الفترة ألوان من الهدايا والألطف ، تساق الفينة بعد

الفينة إلى دار العروس . وتدعى هذه الهدايا بالنفقة وعلى قدر هذه النفقة يعلق النساء أبلغ الأحكام . ومن أمثلتهن السائرة في هذا الباب « العريس يبان من نفقته » وهذه الهدايا لا تعدو النقل والحلوى ، والسّمك ، والشياه ، إذا طلع العيد الكبير .

ولقد جهد بن ، يا سيدي القاري ، ولعله قد جهد بك أيضاً ، فلقد طال المقال ، وتجاوز القدر المقسوم له ، فلنرجي الحديث في حفلات العرس إلى يوم آخر إن شاء الله .





## كيف كان الشباب يزوجون

٢

قد مضى قولنا في الخطبة وأسبابها ، ولم يبق بين أيدينا إلا العقد فالأعراس ، ويحسن بنا قبل أن نتناول شيئاً من هذا بالحديث أن نعود فنؤكد لك أن البنت ، على وجه خاص ، لم يكن لها أى رأى فى أمر زواجها ، ولا فيمن يتزوجها ، ولا يسوغ لها أن تتطلع ولو إلى مجرد العلم بشئ من ذلك ، إنما الأمر كله إلى أمها وأبيها يزوجانها متى شاءا ومن أرادا .

أما الزوج فيختلف شأنه فى هذا بعض الاختلاف ، فهو فى الكثير الغالب لا رأى له فى الأمر ولا خيار . على أنه قد يعلم عن عرسه الكثير أو القليل عن طريق أمه أو أخته أو خالته ، وإنما يهين له الاستماع والاستخبار ما هو مفروض له من جراءة مهما ضعفت قائمها لا تصل إلى خفر فتاة عذراء !

وقلت لك « فى الكثير الغالب » لأنه فى القليل النادر قد يكون الولد مدلاً مرهفاً ، وحينئذ يكون له فى الأمر رأى ولو بمقدار . وكيفما كان الأمر ، فلقد كان محظوراً على الخطيبين أن يترأيا ، حتى بعد العقد ، إلى أن تحين ساعة الزفاف ، بل لقد كانت الفتاة



إذا خطبت إلى ابن عمها أو ابن خالها ، أو ابن عمتها أو ابن خالتها ،  
من نشأت معهم وشبت ولاعبتهم في صغرها ، أسرع أولياؤها فحجبوها  
عنه ، وبالغوا في حجابها إلى يوم الزفاف ، شأن الأجنبية سواء بسواء ،  
وكان لذلك حكمة لا تخفى على فطنة الفطناء !

وتحل ساعة العقد ، فلا يكون وكيل العروس إلا أبها أو عمها ،  
عند فقده ، أو أخاها وكلمته أو لم توكل ، تكلمت أو عقد الحياء لسانها  
عن الكلام .

وبعد أشهر تقضى في إعداد الجهاز الذي قد يكون موضوع مساومة  
عنيفة بين أولياء العروسين ، يعين يوم العرس ، أو « ليلة الدخلة »  
في تعبير النساء !

وتسير « زفة » الجهاز من بيت العروس إلى بيت العريس تتقدمها  
الموسيقى ، ومن ورائها حملة التحف والآنية الثمينة باسطين تحتها أيديهم ،  
فهذا يحمل ديباجة من الحرير موشاة بأسلاك الذهب والفضة ، وهذا  
يحمل طشتاً وإبريقاً من خالص الفضة ، أو من النحاس الموه بالذهب  
والفضة ، وهذا علبة تنكشف عن بضعة أكواب من الفضة ، وهذا طاس  
حمام كذلك . ولقد ترى آخر يحمل بين يديه قبقاباً مكفتاً بالصدف والفضة !  
ثم يلي هؤلاء رتل من « عربات الكارو » لا يدرك الطرف آخره ،  
قد بسط الجهاز عليها بسطاً ، ومط فوقها مطاً . فهذه حشية ( مرتبة ) ،  
قد خص بها مركبة ، وهذه خمس وسائد ، قد أفرد لها عربة وقائد ،  
وهذا « كنسول » عليه مرآة ، قد قصرت العربية عليه دون سواه ، وهذا

نضد ( تراييزة ) قد شجر بالزهور ، وهذا « دولاب » قدت أبوابه من البلور ، وهذه لحف مبسوطه ، وهذه نمارق مبشوثة ، وهذه أريكة بين يديها شجاب ، وهذان كرسيان قد نشر عليهما ستر باب وهكذا وهكذا ! ولا تزال هذه العربات تجوز بك وهي في كلاءة الأحراس ، حتى يحتم الموكب ، بفضل الله ، بعربة النحاس . وكان في عربتين كفاية ، وفي ثلاث فضل . ولكن لا تنسى أن للتباهي حكمة ، وللتكاثر غرمه وغنمه !

ولقد ترى أن شيئاً من هذا لا يزال قائماً إلى الآن ، ولكنه أضحي مقصوراً على الطبقة الدنيا من الأهلين ، وكيفما كان الأمر ، فلعلك لم تنس أنني قلت في الحديث السابق إنني أحب أن أجلو الصورة كلها قبل أن تحول ، أو يلحقها النصول .

وترسل الدعوة لولية العرس إلى الأصدقاء والحيران والمحبين ، وهي رقعة في حجم الكف تكتب صيغة الدعوة فيها بماء الذهب ، وتبدأ عادة ببتين أو ثلاثة من الشعر ؛ وكانوا يدعونها الملحق . ولكيلا أشق عليك في إشاعة تخمينك فيما عسى أن يكتب في هذا الملحق ، أعرض عليك نموذجاً منه :

من دعى فليجب

ليالى الأانس قد طابت ورقت	وطير الصفو غرد بالسرور
وجاد الدهر بالبشرى علينا	وداعى السعد وافي بالحبور
فهيأ يا أحبة شرفونا	بأنسكمو ومنوا بالحضور



بمشيئة الله تعالى ، سيحتفل فلان في يوم كذا من شهر كذا سنة كذا بتأهيل نجله فلان على كريمة فلان ، وذلك بمنزله الكائن بجهة كذا . فالمرجو التشریف لتم بكم الأفراح ، وتزول عنا الأتراح . والحضور الساعة . ١ عربى نهاراً ، والعاقبة عندكم في المسرات .

وقبل أن أخوض بك في ليالى العرس ، فكثيراً ما كان الاحتفال بالعرس يستغرق ليالى لا يقتصر على ليلة واحدة — قبل أن أخوض بك في هذا ، أقرر أن المصريين كانوا دائماً أهل كرم وإيثار ، فما كانوا قط يستأثرون في أعراسهم ونحوها بأسباب تلذذهم وتطريبيهم ، بل لقد كانوا يبسطونها ويبدلون في الطريق العام ، قصداً إلى أن يشركهم فيها كل من شاء من الناس .

ولقد قلت لك إن الاحتفال بالعرس كثيراً ما كان يستغرق ليالى لا يقتصر على ليلة واحدة . وهذه الليالى ، كانت في الغالب ثلاثاً : اثنتين منها تدعيان بالضَّمَمِمْ ( بضم ففتح ) . أما الثالثة وأعنى بها الأخيرة ، فلييلة « الزفة » أو لييلة « الدخلة » ، لييلة تولم الولايم ، ويقرب لجمهرة المدعوين شهى المطاعم .

وأولى هذه الليالى تخص بخيال الظل ، وهو عبارة عن دكة كبيرة تعلو واجهتها شاشة بيضاء تقرب مساحتها من شاشة السينما الآن ، أما جوانبها الأخرى فتحجب بألواح من الخشب يداخل بعضها في بعض ، وفيها باب لدخول اللاعبين وخروجهم ، وفيها يضيئون مشاعل قوية لتجلو على النظارة ما يعرضون من الصور في وضوح وجلاء .

أما هذه الصور فلا تأس ، ودواب ، وطيور ، وأشياء . وتسوى هذه الصور من الجلد ونحوه ، تصيغ بمختلف الأصباغ لتحاكي ألوان ما يبدو من الأجسام والثياب .

ويمثل خيال الظل رواية قوامها عشق وصبابة بين فتى مصرى صميم ، وفتاة بنت راهب مسكنها مع أبيها الدير ! ويتخلل هذه الرواية صور استعراضية متنوعة . وكل من يحرك صورة من صور هذه الأناسى يجرى الكلام على لسان صاحبها فى دقة وبراعة تقليد ، حتى كأنها هى التى تتحدث بأسماع الناس . فهناك المغربى ، والسورى ، والبربرى وابن البلد المصرى . ومن هؤلاء ونسمع ما شاء الله من رائع النكت ، وقد يكون بعضها من عفو الارتجال .

ولقد كان أفخم خيال للظل هو الذى يديره المعلم حسن قشاش ، وكان سيد أصحاب النكتة فيه غير مدافع ، هو المرحوم ناجى ، وقد رآه كثير من أهل هذا الجيل ممثلاً بشخصه فى الأعراس ، أو فى دور التمثيل فى الفصل المضحك الأخير . أما دور ناجى فى خيال الظل ، فكان تمثيل الغلام بولس شقيق علم ، والترسل بينها وبين صاحبها تعاتير حتى يصل بينهما الزواج . وكان ، رحمه الله ، يرسل بالنكتة بعد النكتة فى خفة روح ولطف إيقاع ، حتى يكاد يشق أضلاع النظارة من شدة الضحك المتواصل بغير انقطاع .

وقد ذهب عنى أن أقول لك إن الطبل البلدى كان له مجلس بين يدى الخيال ليعزف فى أوقات الاستراحة أو ليرقص على توقيعه من يرقص من أشخاص الخيال .



أما الليلة الثانية فبيعت السمر فيها أبو رايبة ، وأبو رايبة علم على تلك الفرق التي كانت تمثل بأشخاصها في مقدمات ليالى الأعراس ، إذ كانت تصف الدكك والكراسى على عذارى الطريق لجلوس النظارة إذ يترك وسطها مسرحاً لاضطراب هذه الطائفة من المفلسين . وكانت هذه الفرق تمثل كذلك روايات إذا أسفت مطالبها وسخفت مغازيها ، فلقد كانت سرية بما يشيع فيها من بارع النكتة . ولقد كانت الحال تدعو إلى ظهور امرأة في بعض الرواية ، على أن امرأة لم تكن تظهر أبداً ، فكان يتخذ لهذا الدور إما مخنث محترف ، وإما رجل يحسن تقليد النساء .

ولا شك أن سيد هؤلاء المفلسين كان المرحوم الحاج أحمد الفار الكبير ، والعجيب أن هذا الرجل على خصوبة بديهته ، وتدفعه بالنكتة يشق الناس لها ثيابهم من ضحك ومن انبهار ، لم يكن يبتسم أبداً ، بل لقد كان يتكلف الجد إلى حد أنك تراه دائم العبوس .

ومما يحسن في هذا المقام ذكره ، أن هؤلاء المفلسين كانوا يعتمدون رجلاً من صلب أصحاب العرس أو من حواشيهم ، ولعل ذلك كان بالاتفاق معهم ، فيتخذون منه عامة الليل هدفاً للنكتة حتى ما يدعو فيه أديماً صحيحاً ، والناس يضحكون ، والرجل معهم من الضاحكين .

وحسبنا هذا اليوم . وسنفرد ليوم العرس حديثاً خاصاً إن شاء الله .

## الأدب الفج

كان من مزايا صديقنا شاعر النيل حافظ بك إبراهيم ، عليه رحمة الله ، مطاوعة البديهة ، وحضور النكتة ، يتصرف فيها ويفتن لكل مقام ، ما تتعاصى عليه ولا تتعثر على لسانه أبداً .  
وكان ، إلى هذا ، يحفظ أطرف النوادر وأطرفها وأدعاها للعجب ، وأبعثها للضحك .

وقد سمعت منه ، رحمه الله ، النادرة الآتية ، قال :  
قبل أن يوصل ما بين منيل الروضة والقاهرة بالجسور (الكبارى)  
كان الناس يتخذون الفلك (المعدية) في طلبهم العبر من العبر .  
وجاء رجل من المدينة ليعبر إلى الروضة من ساحل فم الخليج ،  
وكان الليل قد تقدم ، فوجد الملاحين يغطان في نوم ثقيل ، من  
تحشيش الليل وكد النهار ، فما زال بهما حتى بعثهما ، ونهض  
أحدهما إلى موضع المجاذيف ، وتولى الثاني الدفة ، وأنشأ صاحب  
المجاذيف يضرب بمجذافيه جيت الماء . على أنه ما كاد يفعل مرتين  
أو ثلاثاً حتى تبهر وانقطع نفسه ، وانخذلت قواه ، وأحس شدة جفاف  
الحلق من أثر الحشيش ، فتناول الكوز ، ولم يكن أن زميله كان  
قد أذاب فيه ملحاً ليعالج به أذنه ، واغترف به من النهر غرفة ،



وأصاب من الماء ، فاذا هو ملح أجاج ، فصاح من فوره بزميله  
صاحب الدفة :

— يا ريس عويس ! . . .

هو !  
على إيدك ! . . . دخلنا المالح ! . . .

ولقد أذكرني هذه الحكاية ، بعد نسيانها السنين الطوال ،  
شأن أبنائنا من زادة الأدب في هذه الأيام ، وحرصهم على الظفر  
بالشهرة ، بل بالبطولة والمجد والخلود ، بعد علاج منظوم أو منشور  
في بضعة أشهر ، أو في بضعة أسابيع ، وأخشى أن أقول في بضعة  
أيام في بعض الأحيان !

وقبل أن أخوض في لجة الموضوع ، أرى من الخير أن أنقل  
إلى قراء « الثقافة » صدرأ من حديث لمتحدث ، أذاعه بالراديو في  
غاية الأسبوع الماضي ، كان بعضه يطوف بهذا الموضوع ، قال :  
« لا ريب أن ما نسمع الآن من المقطوعات الغنائية إنما هو من  
النوع الواطي الردي ، الذي لا قيمة له ولا وزن ، ألفاظ سوقية  
مبتذلة ، وتراكيب سقيمة مفككة ، ومعان منحطة ، وأخيلة ظاهرة  
التزييف والترقيع ، فاذا عدت هذه الأناظم من الأدب ، على أي وجه  
من الوجوه ، فهي من الأدب الفسل الوضيع . أو على التعبير العامي  
الشائع من الأدب « الفلصو » الذي لا محل له بين كرائم الآداب .  
« وإنتى أشك في أن أكثر هؤلاء الناظمين قد أصابوا حظاً من

اللغة ، أو جروا على عرق ، ولو ضئيل ، من آدابها ، إننى أشك فى أن أيهم حفظ شيئاً من شعر البحترى أو أبى نواس أو أبى تمام . بل إننى لأشك فى أن أيهم شق ديوان المتنبى أو أرسل النظر يوماً فى ديوان ابن المعتز أو فى ديوان مسلم بن الوليد . وما أحسب أحداً منهم طالع ولو بنظرة واحدة ، كتاب البيان والتبيين إذا كان قد سمع باسم الجاحظ ، ودرى بأن لهذا الجاحظ كتاباً يدعى «البيان والتبيين !» « وما له ، لعمرى ، يقرأ ، وما له يكد النفس ويعنيها فى الحفظ والمراجعة ؛ وما له يستهلك الزمن فى تقليب النظر فى روائع الآداب ، وترشف ألوان البلاغات ، كما يترشف الماء الزلال ذو الغلة الصديان ؟ ما له يعانى كل هذا أو بعض هذا ، ولقب الأديب ولقب الشاعر مكفول له من غير كد ولا مطاولة ولا مقارفة جهاد ؟ » الخ . . .

وبعد ، فلقد يكون فى هذا الكلام شئ من القسوة ، ولكنه لا يعدو الرغبة فى الخير على كل حال ، وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . » وكيفما كان الأمر فإن هذا الضرب من الأدب ، قد انحط فى الجملة ، بل لقد هوى إلى قرار سحيق ، وإن ما تسمع من هذه المقطوعات الغنائية ليشعرك حقاً بأن كثرة هؤلاء الناظمين قد ارتجلوا حرفة الأدب ارتجالاً ، وانتحلوها انتحالاً ، ما عناهم فى سبيلها جهد ولا تحصيل . وإن من لا يبذل فى سعيه إلا الجهد الرخيص ، لتحقيق بأن لا يظفر ، إن ظفر ، إلا بالخط الرخيص . وليس أدل على هذا



من أن الكثرة الكثيرة من هذه المنظومات الغنائية لا يكتب لها العيش إلى اليوم الثاني . ولا أدري كيف لا يكون من هذا وحده عبرة لأولئك الناظمين؟ (١)

ولو قد تفقدنا السبب الحق في تدلى المستوى ، في بعض أسبابنا ، وأعنى مستوى الأدب ، على وجه خاص ، إلى الحد الذي يضر ويؤذى ، لأصبناه في هذا الطائفة الذي يطوف بنا في هذه السنين ، وهو ضعف العزائم ، وقلة الصبر ، وتعجل الثمرات ، وابتغاء النتائج من غير تقديم ما يحتم المنطق وتقتضى الطبيعة بتقديمه من المقدمات !

هؤلاء ناس يحبون المال ، ويشتهون الغنى ، ولكنهم لا يبتغون المال من وسائله ، ولا يطلبون الغنى من طريقه المقسوم ، من حسن القصد ، وموالاته السعى ، والتخفف مما لا حاجة إليه من النفقات ، وموالاته الجمع والتمهير . ولكنهم لا يجدون في أنفسهم الكفاية من الوسائل المقدرة لأصابة الغاية ، ولا من قوة الصبر والانتظار ، ولا من احتمال الجهد في سبيل الجمع والادخار ، ولا شئ من هذا الذي يدرك به ، في العادة الغنى واليسار . إذاً فليقامر ، فلقد يكون إقبال

(١) ليس المراد أولاً أن تجرى هذه المنظومات الغنائية مجرى جيد الشعر من جزالة اللفظ وخلق النظم ، بل الأمر على العكس فإنه ينبغي سهولة اللفظ ، ويسر التركيب ، بل لقد يقتضى الأمر استعمال العامية في بعض الأحيان إذا كان لا يحلو إلا بها الكلام ، وكذلك كان يصنع كبار الشعراء والزجالين فيما مضى ، وكذلك كتب لاناظيهم البقاء إلى الآن . وكذلك يصنع كبار الشعراء والزجالين اليوم . وكذلك يرجى أن تعيش أغانيهم إلى الغد البعيد إن شاء الله .

الدنيا في القمار . والقمار ، حرسك الله وعصم عليك مالك ، وإن قل ،  
سبيل ميسرة لكل إنسان . فمن ثقل عليه أن يستوى إلى إحدى  
سوائده الخضراء لهوان شأنه ، وصيتي يده ، فلا يثقل عليه أن يخاطر  
في حلبة السباق . أليس الجواد ( الفلاني ) قد أغل الريال عليه  
مائتي جنيه ؟ ومن ثقل عليه أن يؤدي نصاب الرهان على الخيل  
فليشارك في النصاب ، وإلا ففي ورقة اليانصيب متسع للجميع !  
وفيها المائة والمائتان والخمسمائة والألف والآلاف ، وهكذا يجي الغنى  
عفواً بلا سعي ولا كد ولا عناء ! ثم إذا كف المسكين صفر ، سواء  
في آخر الليل أو في آخر النهار !

وإذا كان هناك فرق بين هذا الذي يطلب الغنى من غير  
سبيله ، وذلك الذي يشتهي أن يجني ثمرات الأدب من غير سبيله ،  
فإن الحظ محتمل لذلك ولونسبة ..... أما هذا فغير مقدور له  
حظ أبداً !

لا ، لا ، يا بني ، لا تظن أن المنزلة في الأدب أو في غير الأدب  
تواتى بمثل هذا اليسر كله ؛ فالأدب يغتصبك ، مهما تكن قد رزقت  
الموهبة ، أن تسهر الليالي في حفظ الروائع التي جاد بها من سبقوك  
من أئمة البيان ، وفي تقليب الذهن في بلاغات من تقدموك من  
كفاة أصحاب البلاغات ، وشدة المطاولة في محادثهم ، والتشبه بهم  
في منازع بلاغاتهم ؛ فإذا تهياً لك أن تستحدث طريفاً أو تبتدع في  
الفن جديداً ، فأنت الأديب الموهوب بفضل الله . أما أن تطلب  
الطفرة ، وتلتمس النتيجة من غير مقدمات ، فالطفرة ، لو علمت ،



محال . لن تكون أكثر من أديب مرتجل ، أو بالتعبير العامي أديب شيطاني ما دمت تقنع من السعي بأن تنظم كلاماً فارغاً مليحاً ، تلفقه تليقاً لا براعة فيه ، من كلمات جمال الطبيعة ، والأشجار ، والأزهار والأطيوار ، والعبير ، والغدير ، والهدير ، والقمر والنجوم ، والسحاب والغيوم ؛ فاذا وصلت بسلامة الله إلى « لحن الخلود » فقد أديت « رسالة الأدب » وحق أن يذهب لك صيت وذكور في التاريخ . وما شاء الله كان !

لا ، لا ، يا بني ، لا يكفي أن تؤلف ، أو على الصحيح أن تلتفح من هذه الكلمات ، أو منها ومن سواها ، كلاماً بائخاً مليحاً ، لا طعم له في مساع النظام ، ثم تطلع به على مغن حدث أو مغنية حدثة ، لتصك بترديد ، أسمع الناس صكا . لا يكفي هذا في ابتغاء الرزق من الأدب والمنزلة في الأدباء .

وسامحنى ، يا بني ، إذا قلت إنك وأمثالك من أصحاب هذا الأدب الفج ( العجر ) لتجنون على أنفسكم أولاً ، وتجنون ثانياً على الأدب في هذه البلاد وغير هذه البلاد !

وأرجو ألا تصغى إلى أصحابك ولداتك الذين ينضحونك بالثناء نضحاً ، فيصفونك بالعقرية ، ويضيقون منظومتك إلى الخلود . وكذلك يرم أنفك . وكذلك يطمعونك في المنزلة بين السماكين ، وكذلك تقطع كل سبب بينك وبين مساعي الحياة ، إذ كفك صفر ، وإذا أنت لا تزال هائماً في القفر ، فأنت إذاً « كالمبنت ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ، وصدق رسول الله .

أما أن يصدق هؤلاء الناشئون أنهم قد رزقوا الموهبة جميعاً ،  
 فلا حاجة لأحد منهم بسعى ولا تحصيل ، ولا جهد كثير ولا قليل ،  
 فليعلموا أن الناس لا يمتطرون المواهب بمثل هذه الفداحة الفادحة  
 وإذا كانت أمثال هذه المواهب مما يباع ويشترى ، لما ابتغت لها ،  
 معرضاً أليق من سوق العصر .

هذه ، شهد الله ، نصيحة صادقة مخلصه ، يسديها إلى جمهرة  
 الناشئين من الناظمين ، من لا يشعر لهم إلا بعطف الوالد على الولد .  
 فاذا أصروا بعد هذا ، على أنهم بضربتين من المجداف « قد دخلوا  
 المالح » ، فأمرهم وأمر الأدب إلى الله .





## ذكريات

### بيني وبين حافظ ابراهيم

وكننا كندمانى جذيمة حقة من الدهر حتى قيل لن نتصدعا  
فلما تفارقنا كانى ومالكا لطول افتراق لم نبت ليلة معا

وبعد ، فما أدري ما خير « الهلال » فى أن تريدنى على الكتابة  
فما كان بينى وبين شاعر النيل حافظ بك ابراهيم ، عليه رحمة الله ؟  
لا أدري ما خيرها فى هذا ، وما الذى يغريها به ويدفعها إليه ،  
وكما اعتذرت ردت الاعتذار ، وكما حاولت التملص سدت على المنافذ ،  
وأخذت بين يدي انذاهب . ويا عجباً ! ماذا يكون بينى وبين حافظ  
إلا ما يكون ، فى العادة ، بين جميع الأصدقاء ، أو بين جميع  
الأعداء !

كنت أصحب حافظاً ويصحبني ، وكنت ألقاه ويلقاني . وكنت  
أتمر معه ويسمر معي . على أنى لم أكن وحدي الذى ظفر بهذا  
الخط من حافظ ابراهيم ، فمن صاحبه ولازمه كثير ، ومن غشوا  
بجالسه ، واستمتعوا بملحه وطرائفه أكثر . وحافظ لم يكن متحجباً  
ولا منتبضاً عن الناس ، ولا يرما بلقائهم وغشيان مجالسهم وفسح



مجالسه لهم ، والتبسط بألوان الحديث معهم ، بل لقد كان فياضاً ثراً متدفقاً يسمح بطرائفه ، كما يسمح بماله وبطعامه ، ما يضمن على أحد بما طالت يده ولا بما يطول لسانه ، ففيم إثاري بالتحدث عنه ، وفيم اختصاصي بالقول فيما كان بيني وبينه ؟ على أنني ما برحت مفروح الكبد لفقده ، ما ترقأ لي عليه دمة ، ولا تبرد لي ، كما ذكرته ، لوعة . فكيف لي ، مع هذا ، بالخوض فيما يروق من شأنه ، وما يعجب وما يسر من حديثه وما يطرب ؟

في الحق إن تكليفي هذا دون الناس جميعاً عجب من العجب !

وبعد ، فاذا كانت « الهلال » إنما تحرص على إثاري بهذا لأنها تحسب أنني كنت أوثق أصدقاءه به وأقربهم محلاً من نفسه ، فقد خالفها الظن وأخطأها الحسبان .

عاشرت حافظاً وصاحبته ولازمته أكثر من خمس وعشرين سنة متوالية متصلة ، حتى مضى إلى فضل الله ورحمته . ومع هذا لا أدري أكان لي أصدق الأصدقاء ، أم كان لي أعدى الأعداء ؟ ولا أدري من جانبي أيضاً ، أكنت له أصدق الأصدقاء ، أم كنت له أعدى الأعداء ؟ وهل كان يحبني أشد الحب ، ويضمري لي أخلص الود ، أو كان يكرهني أشد الكره ، ولا ينطوي لي إلا على أبلغ المقت ؟ كذلك لا أدري إذا كنت أحبه أشد الحب ، ولا أكن له إلا أصدق الود ، أو أنني أكرهه أعنف الكره ، ولا أنطوي له إلا على أقسى الحقد والبغض ؟ أكان يكبرني ويجل موضعى ، وكنت أكبره وأجل

محلله ، أم كان يزدرينى وأزدريه ، ويرى ألا فضل لى وأرى ألا خير فيه ؟

وترى أنه كان لا يبغي لى إلا النفع والخير ، ولا أبغي له إلا النفع الخير . أو أنه كان لا يرجو لى إلا الأذى والضرر ، ولا أرجو له إلا السوء والشر !

ما زلت ، لعمرى ، بين الأمرين فى أحيير الحيرة وأضل الضلال ! كنت لا أستطيع صبراً على فراق حافظ ، وكان حافظ لا يستطيع صبراً على فراقى ، ولا أستطيع طعاماً شهياً إلا إذا كانت يده مع يدى ، ولا تطيب له نزهة مفرجة إلا إذا كانت رجلى مع رجله ، وهل مهد لآتيان مجلس غناء أو هو أو سمر ، فاستوى فيه ، واطمأن إلى موضعه منه ، إلا إذا كان صاحبه معه ، واحتل من المجلس موضعه ، لا يحقن أحدنا عن الآخر سراً ، ولا يكتمه من مداخل أمره أمراً .

ولقد يدعونى بعض الأمر إلى الشخصوس إلى الاسكندرية على أن أبيت فيها ليلة ، فيثبط من همتى ، ويدغدغ من عزمى ، ويهون على من خطب طلبتى ، وينطلق يذم الاسكندرية ، ورطوبة الاسكندرية ، وضيق مساحة الاسكندرية ، حتى لتلقى من تكره فى اليوم الواحد عشرين مرة فى الاسكندرية . فاذا أصاب منى العزم والاصرار ، زم متاعه ومضى معى إلى الاسكندرية ، ما يفتر لسانه طول الطريق لحظة واحدة عن لومى وتقريعى ، والأبانة عن سوء رأى وفساد ذوقى . يفعل هذا وهو متجههم الوجه بآدى الغيظ ! ولقد تدعوه بعض الحاجة إلى سفرة كهذه السفرة ، فأفعل معه مثل هذه الغفلة . وسرعان



ما أرزم حوائج السفر ، وأمضى معه متى استيقنت من عزمه وإصراره !  
وكيفما كان الأمر فإني أعود فأقرر أن حافظاً رحمة الله عليه  
كان لا يستطيع على فراقى صبراً ولا أستطيع على فراقه صبراً ، ومع  
هذا فانه ما جمعتنا خلوة إلا جعل يصارحني ببغضه ، وأباده بمقتته .  
ويذكرني ما أسلفت من أذاه ، وأذكره ما أسلف من الكيد لي ،  
ولا تزال على هذا حتى يبدو ناجذ الفتنة ويهيج هائج الشر . ومع  
هذا لا توسوس لأينا نفسه بالفرقة وطلب الخلاص من هذا البلاء !  
لا أذكر أنه ضمنى به مجلس قط ، سواء كان فيه من نعرف أو من  
لا نعرف ، وكان فيه من فعلى أقدارهم ، وبخل أخطارهم ، أو كان فيه  
من نتهاون شأنهم ، ولا تضمّر أنفسنا إلا استحقارهم والزراية عليهم .  
لا أذكر أنه ضمنى به مجلس قط إلا جلاله مداخلى وبذل بين يديه  
أكره مكارهى . فاذا أعوزته المكاره خلقها خلقاء وارتهلها من عفو  
الخاطر ، ارتجالاً !

ولقد يوغل في الكيد ويمعن في الأذى ، فيشرك نفسه معي  
فيما يرميني به من ألوان التهم ، ولو قد صح أكثرها لأفضت بنا  
كلينا إلى محكمة الجنایات ، والعياذ بالله . فيقول لما فعلت أنا وفلان  
كذا ، ولما اترقنا كذا ، وهكذا . . . وكل هذا ليؤكد على التهمة  
ويوثق الجريمة . وتراه يضع في هذا الموضع نفسه ، ويبلغ منها به مالا  
يبلغ أعدى عدوها ، ليرضى نقمته منى واضطغانه على ، ولا أجر  
الله القائل :

فاقتلونى ومالكاً واقتلوا مالكاً معي

انظر يا سيدى كيف يكون غيظى ، حتى لأكاد أخرج من  
جلدى ، ثم فكر فيما يرمى به لسانى من منكر القول ، ومستكره اللفظ ،  
نضحاً عن نفسى ، وشفاء لصدري ! ثم تدبر ، بعد هذا ، ما يعترينى  
من الألم ، وما يلحقنى عليه من واخز الندم . ولعنة الله على الغضب  
وما يفعل الغضب !

ولقد يتوافق رأيانا فى رجل ، فنذكره بما نحسب فيه من ثقل  
الظل ، أو سدة البخل ، أو الكذب والتزيد ، أو التنفج وعرض  
الدعوى ، أو غير ذلك مما يكره الناس أن يذكروا به ، فيلقاه فى  
سر منى ، ويقول له : « إلا فلاناً يرمىك بكيت وذيت ، فتعال معى  
أسمعك بأذنك » . ويواريه فى غرفة مجاورة أو يدسه من حيث لا أرى ،  
خلف ستار ، أو تحت سرير . ثم يقبل على فيستدرجنى إلى حديثه ،  
وما عسى أن نكون قد أرسلنا من النكات على خلاله تيك ، فاذا  
بلغ من هذا كل ما أراد ، سل صاحبنا من حيث كان ، فطلع على مغبر  
الوجه ، متكرش الجبين ، ممر الحدق ، بارز الناب !

وانظر يارعاك الله ، أى جهد يجب على أن أبذله ، وقد يعيننى  
حافظ بانقاذ الموقف ( كما يقولون ) وصرف الأمر كله إلى النكتة ،  
حتى يسكن غضب الرجل ، ويتفرج غمه ، وتطيب نفسه ، ويشيع  
البشر فى وجهه ، على أنى إذا خرجت من ثأر شره على سلم ،  
واطماننت منه إلى الأمن ، فانى لأقضى بقية نهارى وسواد ليلى قلق  
النفس مقشعر الجلد مما عسى أن كان يكون . ولا حول ولا قوة  
إلا بالله العلى العظيم .



ومن أعجب العجب ، وإن شئت قلت « من بركة العجز »  
 أن هذه الحوادث قد انتهت أكثرها ، إذ لم يكن قد انتهى جميعها ،  
 إلى استيثاق الصلة ، وعقد الألف بيننا وبين هؤلاء الذين كان يغريهم  
 حافظ بي ، ويشير حفائظهم على بما يسمعون من حديثي فيهم ، وتناولوا  
 لمكارههم . وقد يزداد هذا الألف على الأيام حتى يصبح صداقة  
 متينة ووداً خالصاً !

وأغلب الظن في هذا أننا لم نكن نعرفهم حق المعرفة ، ولم نخالطهم  
 حتى نغلب عن يقين حقيقة شأنهم ففسرع إلى الحكم عليهم بما نرى  
 من ظواهرهم أو بما نسمع من خصومهم عنهم . حتى إذا عرفناهم  
 وبلوناهم ، تجلت لنا فضائلهم ومزاياهم . وإذا ما ذهبنا إليه إنما  
 كان أوهاماً في أوهام ، لم نخرج منها واحسرتاه ، إلا بالماكر والآثام !  
 اللهم اغفر لنا خطايانا وتب علينا واعف عنا ، إنك أنت التواب  
 الرحيم !

على أن مما يعزينا في هذا الباب ، أننا ما تناولنا ، والحمد لله  
 عرضاً ، ولا اتهمنا أحداً في ذمته ، ولا رميناه بكبيرة . إنما هي الشهوة  
 إلى التندر على الناس والسلام !

ولقد كان حافظ يعرف مني شدة الخوف مثلاً من سرعة السيارات ،  
 فيستدرجني إلى إحداهن لنزهة أو لعدة . ولا أركب حتى أستوثق  
 من أن السائق لا يفعل . وإذا هو قد أوصاه ، وربما رشاه ، فما يكاد  
 الخنزير يبعث عجل السيارة ، حتى يجريها في سرعة الكوكب

الهاوى ، أو البرق الخاطف ، ما يبالي زحمة الطريق ، ولا مواجهة الترام ، ولا يطامن منه أنه يرقى تلعة ، أو يمشى على حافة ترعة . أو نحو هذا مما يغلب توقع التلف فيه على توقع السلامة !

وبعد ، فأرجو ألا تظن أنني كنت أتمثل مع حافظ ، على شئ من هذا ، بالحكمة الرفيعة القائلة : « المسامح كريم » فأنى ما كنت أجزيه إلا شراً بشراً وغيظاً بغيظ ، وكيداً بكيد ! ولعلى كنت أخبر الناس بما يخبث نفسه ، ويكدر صفوه ، ويذكي هممه وغممه ، ويسود نهاره ، ويقض الليل مضجعه . فما حرمت شيئاً من هذا شهوة الحقد أبداً ، والبادى أظلم !

هذا ولا نتفارق ، لأننا كلينا لا نستطيع على الفراق صبراً .

وإذا أردت أن تعرف بالضبط والتدقيق لون الصلة التي كانت بينى وبين حافظ ، فألتسها فيما كان يصفنى به ويردده على الأسماع عنى : « فلان ضرر لا بد منه » وكان ذلك رأى فيه أيضاً . رحمه الله ، وألحقنى به على الايمان إن شاء الله .

وأرجو ، إذا كان فى العمر فسحة ، أن آتى بشئ من التفصيل عن بعض ما كان بينى وبينه من هذا القبيل .



الحمد لله رب العالمين  
 الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا  
 ان هدانا الله لكاننا من الخاسرين  
 في هذا اليوم المبارك  
 الذي جعلنا فيه  
 من عباده الصالحين  
 الذين هم خير الامم  
 التي اخرجت للناس  
 في هذا اليوم المبارك  
 الذي جعلنا فيه  
 من عباده الصالحين  
 الذين هم خير الامم  
 التي اخرجت للناس

الحمد لله رب العالمين  
 الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا  
 ان هدانا الله لكاننا من الخاسرين  
 في هذا اليوم المبارك  
 الذي جعلنا فيه  
 من عباده الصالحين  
 الذين هم خير الامم  
 التي اخرجت للناس

## مهم الأديب في الشرق أن يكون أديباً شرقياً

ولست أعني بالأديب كل من يجيد سبك الشعر أو يحسن تزويق الكلام ، إنما أعني بالأديب ، الأديب حقاً ، وذلك الذي استنارت بصيرته ، ورهفت حسه ، ولطفت مشاعره ، وأضحى له من حد النظر في بواطن الأشياء وما ينقطع دونه جهد الأنظار . إنما أعني بالأديب ذلك المفتن الذي يلمح بالنظرة المومضة ما لا أدركه أنا ولا أنت ولا يقع عليه حسي ولا حسك مهما أذكينا من الذهن وشحذنا من الاحساس . لست أعني بالأديب هذا الذي يشمر في اختلاق الأخيطة لم تنتظر لنفسه ، وفي تلفيق الصور ما تجلت على حسه . إنما أعني بالأديب ذلك الذي اتسع أفقه ، ونفذت إلى الأطواء بصيرته ، فهو يرى بعينه الباطنة ما لا يرى غيره ، فاذا تعاضمك ما جلا عليك من غريب الصور ، وما سوى بين يديك من طريق الخيال ، فلا تظن أنه ملفق أو مزور أو مخترق ، بل إنه ليحدثك بما تتحدث به نفسه ، ويجلو عليك ما يرى هو وما يسمع وما يشعر في غير زيادة ولا نقصان . ولعلك قد أدركت من هذا أن ذلك الأديب النير الحساس لا يجدي الأدب ولا الناس إذا لم يكن متمكناً من ناحية البلاغة ،



حتى يستطيع أن يكون أميناً ودقيقاً ورائعاً فيما ينفضه عليك من صور البيان .

ويعد ، فان مهم الأديب في الشرق جليل الخطر ، بعيد الأثر ، مهمه الأول أن يوجه حسه إلى الشرق ، وأن يحرر عاطفته كلها للشرق ، فقد استدرج الغرب إليه حس أدباء الشرق وعواطفهم جميعاً ، أستغفر الله ، بل لقد سطا بها سطواً ، وانتزعها من بيئتها انتزاعاً .

اللهم إن أعظم أدبائنا الشرقيين قدراً ، وأجلهم خطراً ، لا يكادون يطرحون النظر إلا على الغرب ، ولا يكادون يتصورون الأشياء إلا بذهن الغرب ، ولا يكادون يصورون ما يجدون إلا على أسلوب الغرب بل لا تكاد أعرافهم تلين وتنفع ! إلا لما يقبل عليهم من ناحية الغرب . لقد استهوتهم حضارة الغرب ، وفتنهم جمال الغرب ، ومك فكر الغرب عليهم كل مذهب ، فلم تبق فيهم فضلة لتقليب النظر في هذا الشرق ، ولا لتصفح وجهه ، والتدسس إلى ما تحت السطوح مما كثرت القرارات وأجنت الأطواء !

ولعل عذرهم كان في أنهم نشأوا في لغات ميتة ، وآداب ميتة ، وحضارات ميتة ، وأفكار ميتة ، وجوكله موت لا تترقرق فيه نسمة من نسمات الحياة ! وما ظنك بمن أحس الاختناق لفساد الجو ، أفلا تراه يجرى لالتماس الهواء الطلق ، يتفرج به ، ويملا منه رئتيه كليهما ليرد به على نفسه ما مضى عنها من عناصر الحياة . وكذلك صنع أدباء الشرق ، وكانوا فيما صنعوا حق معذورين !

في الحق إن الغرب قد استولى على أدبنا ، وأعنى أدبنا الحى أو أدبنا الذى يزعم لنفسه الحياة ، كما استولى على أرضنا ، وعلى علمنا وفننا ، وتجارتنا اوصناعتنا وكل سبب من أسباب الحضارة فى هذا العالم . لقد استولى الغرب على كل شئ عندنا ، حتى على الأدب ، وأصبحنا فى جميع وسائلنا أشبه بالمكاريين يسعون سعيهم لحساب أصحاب الأموال .

ولقد يتعاطمك ويشبع فيك العجب ما زعمت من أن الغرب قد استولى على أدبنا فيما استولى ، ولقد يكون أهم الداعيات على إنكارك ما ترى كل يوم لكتابنا المجلين من لفظ عربى رشيق ، فى نظم عربى أنيق ، وما تجد من منازع بلاغات تطاول أزكى بلاغات العربية فى أزهى العصور ، فليس الأدب حلاوة لفظ ، وتلاحم نسج وإشراق ديباجة فحسب ، بل إنه قبل ذلك لوضاءة نفس ودقة شعور ، ورهافة إحساس ، ونفوذ نظر ، وتهيؤ فطرى لبراعة التصور ، ثم قدرة قادرة على براعة التصوير . وفى هذا المظهر الأخير إنما يحتاج إلى براعة النظم وصحة البيان .

وأرجو بعد هذا أن تحدثنى بعيشك ، كيف يكون أدبنا شرقياً ، وكيف يعد أدباؤنا أدباء شرقيين ، وهم متغيرون لبيثتهم ، منكرون كل الانكار لما يحيط بهم ، لا حظ للشرق ، ولا لطبيعة الشرق ، ولا لشيء من أسباب الشرق فيما يتصورون وفيما يصورون ؟  
وبعد ، فللشرق أرضه وسماؤه ، وله هواؤه ، وله جباله ووديانه ،



وأنهاره وخلجانه ، ونباته وحيوانه ، وله سهله ووعره ، ومعموره  
 وقفره ، وله صحاريه ، وناهيك بصحاريه وما ألهمت من الشعر في  
 قديم الزمان ! وللشرق عاداته وأخلاقه ، وله أفكاره وأذواقه . . .  
 للشرق جماله وفتنته وسحره ، وله جلاله ورهيبته ، وهذا تاريخه  
 الضخم ، لقد احتشد بعوامل القوة والعظمة ، كما سال بأثار الفلسفة  
 والعلم والفن جميعاً . ولقد أزل لنا هذا التاريخ من مجالى عظمة  
 الشرق ما يحير الألباب ، سواء منه ما طاول السحاب ، وما دسا  
 في التراب !

ولعمري ، أليس في هذا كله ما يبعث العاطفة ويستجيش الحسن ،  
 ويلين أبداع الصور تتراءى في أبداع البيان ؟  
 لقد كان الشرق مهبط الشعر كما كان مهبط الوحي وفيه رقى  
 بيان الأرض كما تنزل بيان السماء .

ولقد كان لأجلاء أهل البيان عذرهم الذى أسلفت فيما عذرهم  
 الآن ، وقد انبعثت اللغة ، وحيّ الأدب ، وذكا الشعور ، ورهف  
 الحس ، وراح منا خلق يعالجون ما يعالج أدباء الغرب من تحليل  
 الأشياء ، والنفوذ إلى الأطواء ، واستظهار الطريف البديع من مختلف  
 الصور في شتى مظاهر الحياة .

مالنا ، وقد بلغنا هذا القدر ، ولو بفضل تروينا من أدب الغرب ،  
 لا نوجه إحساسنا وعواطفنا إلى هذه البيئة التى نعيش فيها ، فنتصفحها  
 ونمعن فى تصفحها ونتوسمها ونطيل فى توسمها ، فانها قمينة بأن توحى  
 إلينا أبلغ مما نرجو من ابتهاج ومن روعة وجمال !

اللهم إن أكثر أدبائنا العظام إنما يغذون أرواحهم بأداب الغرب في الكتب والرسائل ، وفيها يقلبون الذهن ، ولها يفتحون الأعراق ، وفيها يغرقون الحس ، وبها يذكون العاطفة ، فأضحى همى متاعهم الروحي لا يزاحم نفوسهم عليها متاع ، وهى فى الغاية سبيل إنشائهم ومادة إنتاجهم ، إليها يردون ، وعنهما يصدرون ! فيتها لنا مع هذا أن نزع أن هناك أدباً شرقياً وأن هناك أدباء شرقيين ؟ (١)

إن مهم الأديب في الشرق - وما وقعت في كلمة الشرق في هذا المقال إلا تمثلت مصر أولاً وجمهرة البلاد العربية ثانياً - أقول إن مهم الأديب في الشرق أن يفتن نفسه إلى بيئته أولاً ، ويشعرها أو في الشعور بأنه إنما يعيش في بلاده ، فيها يدور الفكر ويحول التصور ، ومنها يشتق التخيل ويستنزل الالهام ، وكذلك يكون لنا ، نحن المصريين ، أدب مصرى وأدباء مصريون ، وكذلك يكون لجارتنا سورية الأدب السوري أدب سورى وأدباء سوريون ، وكذلك يكون للعراق أدب عراقى وأدباء عراقيون ، وهكذا . فاذا فرقت بين هذه الآداب بعض العوامل المحلية المختلفة من طبيعة البلاد ومناظرها وتاريخها وعرفها ونحو ذلك ، فلا بأس بهذا ، فسيجمعها ذلك الطابع

(١) إن واجب الانصاف يقضى على بأن أقرر أنني قرأت لبعض كبار الكتاب أدبا مصرى خالصا في التصص وفي غير التصص . وقد بلغوا فيه الذروة في الدقة وجمال التصوير وصدق البيان ، على أن هذا في النسبة قليل ، والحديث سوق للغالب الكثير .



العربي العظيم . أما الآن ، فلا شك في أن هذا الأدب غريب فينا  
أو نحن في هذا الأدب غرباء !  
أستغفر الله أن أدعو إلى هجر أدب الغرب ونحرم قراءته ونرويه ،  
أو عدم استعانتة في التحليل والانتاج والتصوير . أستغفر الله أن  
أدعو إلى هذا أو أشير به ، فإني إذا آثم في حق أدبنا أعظم الآثام ،  
وأجرم عليه أشنع الاجرام !  
بل كل ما أريد أن ما نصيب من أدب الغرب ، وما نتذوق ،  
لا ندعه يطغى هذا الطغيان على أدبنا الشرقي ، فإن الخير كل الخير أن  
نسيفه ونهضمه ونغذي به أدبنا على أن لا يبدل خلفه ولا ينكر صورته ،  
كدأب الأمم التي تعتد بأدابها وترى لها قوة الحياة من كل سبيل .  
فقد عرفت أن المهم الأول للأديب في الشرق أن يكون أديباً  
شرقياً ، مصرياً إذا كان في مصر ، وسورياً إذا كان في سوريا ، وعراقياً  
إذا كان في العراق ، وهكذا يشعر بأنه يعيش في بلاده — كما أسلفت —  
أو في الشعور ، ومما يحيط به يشق التصور ويستنزل الإلهام ، فإذا  
كان الأديب الشرقي كذلك ، بعث من عواطف قوية كل ممكن ،  
واستخلص من بواطن النفوس كل دفين ، واتخذ من أخلاقهم وعاداتهم  
مادته في الفحص والتحليل ، ومن ميولهم ومنازع نفوسهم أدواته في  
التصوير والتخييل ، وشاد بجليل مفاخرهم ، وتغنى بسالف مآثرهم ،  
وكذلك يبعث الأدب الحق ويبعث الشعور القومي جميعاً .  
اللهم إن الأمم العربية لتجد في السعي إلى تحرير الأوطان ، فمتى  
تسعى إلى تحرير الآداب فلا يكون للغرب عليها هذا السلطان ؟

## عباقرة الفن

قبل أن نقص ما هيأناه لهذا المقال من القصص ، نعيد ما سبق لنا أن ذكرنا في مثل هذا المقام من أن الكذبة الفنيين ليسوا جميعاً على غرار واحد ، ولا يلزمون موضوعاً مشتركاً ، بل إن منهم لاخصائيين ، تجرد كل منهم في مطلب ، وحبس سعيه وجده عليه لا يعدوه إلى غيره . أما رأيت الأطباء كيف يتخصصون ، هذا للأمراض الباطنية ، أو للأمراض المعدة منها ، أو لأمراض الصدر دون غيرها ، وهذا للأعصاب ، وهذا للجراحة ، وهذا للخنجرة والأنف ، وهذا للعيون الخ . . . وكذلك عباقرة الفن منهم من اختصت عبقريته بالحديث في الطعام ، ومنهم من اختص بالبطولة والفروسية في القتال والصدام . ومنهم من لا يعدل وله النساء عليه وغرامهن به أي غرام ، وهو يضمن على الآلاف منهن بالنظرة ، ولا يبرح يقدم في صدورهن نار الغيرة ، ويذيب كبودهن من شدة الوجد والحسرة . والمسكين وخمسة من سكرتيريه قد استهلك نهارهم وليلهم ، ففي الرسائل الغرامية يسطع أريجها ، ويتضوع في الحى والأحياء المجاورة عبيرها ، حتى لو صبت أوعية أكبر « فابريقات » الروائح العطرية في العالم ، ما فعلت في الجو فعله ، ولا نشرت في الأفق العريض مثل شذاها



وطبيها . وهذه الرسائل كلها قد جادها الشغف والولوع ، بالعارض  
الहतان من سخين الدموع ، حتى إذا فرغ المسكين المرهق بالحاح ربات  
الجمال ، المضنى بمطاردة جميع ملكات الجمال ، تراه قد أرخى حفته ،  
ورمى بنظرة ساحرة تسلك أعصى الكبود وتذيب الحجر الجلمود !  
وهناك إخصائيون في غير هذا أو ذاك . على أن هذا لا ينفي  
أن هناك من عباقرة الفن من لم يلتزموا موضوعاً ، ولم يتخصصوا  
في أمر ، فهم كبعض أطباء الريف المصرى ، يعالجون كل مرض ،  
ويطيبون كل علة ، فمن رمدين ، إلى التهاب جلد ، إلى شق دمل ،  
إلى تجيير عظم ، إلى توليد حامل ، إلى انسداد أنف ، إلى تمدد كبد ،  
إلى التهاب صدر ، إلى وجع بطن ! فهؤلاء الفنانون العموميون ( إن  
صح هذا التعبير الشائع ) يضربون في كل مجال ، ويأتون في كل  
مقام بأبداع المقال . فهم أغنى الناس إذا ذكر الغنى ، وهم أشجعهم  
إذا دار الحديث في الشجاعة ، وهم الأجزل مائدة ، والأشهى طعاماً  
إذا مال القول إلى الطعام والدسم ، وما يحدث الكظة ويدعو إلى  
البشم ، وهم أشغل الناس لقلوب النساء إذا جرى ذكر الهوى ،  
وما تفعل الفرقة والنوى ، وكيف تصنع بالعاشقات تباريح الهوى .  
فاذا جاء حديث أولياء الأمور وكبار الحكام فخذ ما شئت من  
تهافتهم عليه ، وتباريهم في الزلفى إليهم ، واستنارتهم برأيه في المهمات ،  
واتباعهم لتصحده في الأحداث الملمات وهكذا . . .  
والعجيب في أمر هؤلاء جميعاً أنك تجدهم حاضري الذهن ،  
حافلي الخاطر ، مستيقظي الذاكرة ، لا يند عنهم كبير ولا صغير ،

ولا تنشر عليهم شاردة ولا واردة ، ولا يغيب عن ذاكرتهم شئ مما وقع لهم في الماضي الطويل ، مهما دق أمره ، وهان قدره ، فما يكاد أحدهم يسمع في المجلس الكامة يهتف فيها هاتف يتقدم أحد في باب من هذه الأبواب ، إلا انبرى من فوره يشيد بما له هو من السبق والتقدم ، ويستشهد على هذا بالقصص المسبوكة المحبوكة ، يرويها متدفقا غير متعجبس ولا متوقف ولا متلجلج ولا مستمتع ، ولا مستعين متحنج ولا بتعسل ، كأنما يصدر حديثه عن المؤنس ( موسيقى القرب ) لشدة اتصاله ، وعدم الشعور بانقطاعه ولو مدة جرم النفس !

وكان لى صديق رحمة الله عليه ، يتالح بهذا الكذب ، وما يرح من نشأته يوالى هذا ويدأب عليه ، حتى صار له عادة وجبلة ، وكثيراً ما سمعت أنه إذا لم يكذب لا يستريح عامة يومه ! على أن كذبه كان حلواً عذبا يشعر من فوره بأنه كاذب .

كنت أتمشى معه في صدر إحدى الليالي وقت الغلس ، والجو أدنى إلى الظلمة ، وكان وقتئذ طالبا في إحدى المدارس العليا ، إذا نصب عليه رجل لا أدري ولا يدري هو من أين طلع ولا من أين هبط . بادره بطلب دين عليه . وقبل أن يتم الرجل مسئلته ، عاجله صاحبي مقسما على أنه ليس معه إلا الريال مسحة الجزمة ، فانصرف الرجل عنا وهو يضرب كفاً بكف ! يا لطيف ! . . .

واشترى ذات يوم قميصاً وأرانيه ، وجعل يدلني على جودة قماشه وحسن تفصيله ، فقلت له : بكم اشتريته ؟ قال : بجنينه مصرى ! ولكنني رأيت مكتوباً على عنقه : P.T. 50 ، فقلت له : يا أخي



إن الثمن خمسون قرشاً . فأجاب فوراً : بل هي خمسون نصف فرنك .  
وسافر في بعض السنين إلى أوروبا ليقضى أشهر الصيف وسلخ  
أكثر المدة في إنجلترا ، ثم عاد سالماً ، وجعل يروي ما وقع له من  
طرائف الحوادث ، وهي كثيرة جداً تشغل العد والحساب ، وكان  
أطرفها حقاً أن إحدى نجوم السينما في لندن ( وسمى ممثلة زائعة الشهرة  
بالجمال والفن معاً ) أحبته وكلفت به كلفاً شديداً ، فكانت تقصر عليه  
كل أوقات فراغها ، تصاحبه في نزهاته ، وفي غشيانه لدور الملاهي ،  
وتمضي معه لشهود ما يجتمع لشهوده ، من المعاهد والمعابد والمكتبات  
ونحو ذلك ، حتى لقد تركت قصرها الفخم لتبيت معه في نزله . فلما  
آذن الصيف بالادبار طالعها بنية السفر والقفول إلى بلاده ، فتعلقت  
به وجعلت تبكي وتستعبر ، وتنشج أشد النشيج وأوجعه ، وتضرع  
إليه أن يبقى ، على أن تعوضه مما يخسر من ترك عمله في مصر عشرات  
الأضعاف ، وهو يتأني ويتجنى ، حتى إذا بنست من مقامه ، صممت  
على ترك عملها في إنجلترا والشخص إلى مصر ، رجليها مع رجله !  
وما زال بها يدفعها عن هذه النية الخطيرة ، فلا تتقلقل ولا  
تتململ ، إلى أن خوفها نقض التزامها للشركة التي تعاقدت معها ،  
وما يلزمها من تعويضات جسيمة . ثم سكتت على أن تلحق به إلى  
مصر بمجرد انتهائها من عملها . وكذلك استطاع أن ينقل من بين  
يديها . وكذلك خلا له وجه الطريق إلى مصر !  
انتظروا يا معشر القراء ، فإن الرواية لم تتم فصولا .  
بعد قدومه ببضعة أشهر لقيته ذات يوم فقال : ألم أحدثك حديث

ممثلة السينما الانجليزية؟ فجمعت ذاكرتي ثم قلت : بلى قال : لقد ذهبت ليلة أمس في جماعة من صحبي إلى دار سينما ( كذا ) فاذا صاحبتنا تمثل في إحدى الروايات المعروضة ، وما أن رأتنى حتى انفلتت من موقفها في الرواية ، وأقبلت نحوي حتى ملأت وحدها وجه الشاشة وحجبت كل ما يليها ، وانحنت انحناءة بديعة وهي تبتمس ابتسامة أبداع . ثم جمعت أطراف بنانها ، ولتمتها لثمة طويلة ، ثم فرقها مومثة إلى بها ، ما تبالي النظارة ولا أصحاب الدار ، ولا أولياء الشركة في سبيل الغرام . رأيت يا فلان إخلاصاً كهذا الاخلاص وغراماً كهذا الغرام ؟ فخلفت له بكل مؤثمة من الأيمان بأنه ما كان من يوم أرسل آدم وحواء إلى الأرض إلى اليوم ، ولا يكون من اليوم إلى ساعة ينفخ في الصور إخلاص يداني هذا الاخلاص ، ولا غرام يبلغ عشر هذا الغرام ! ولندخل الآن في البطولات الاختصاصية ( إذا صح هذا التعبير ) ولنجعل حديثنا الأول منها في البطولة العسكرية ، فهي الأشكل بحال العالم في هذه الأيام :

فلان بك رحمة الله عليه ، انحدر من ناحيتيه من أصل تركي . أو تركي وشر كسي . وكان أبوه الباشا ممن حكموا في مصر ، واقتنوا الضياع ، وشيدوا القصور ، وتركوا لمورثتهم فوق ذلك جلائل الأموال . وحصل صاحبنا من العلم في أول نشأته مالا أظنه يزيد على ما تلقته المدارس الابتدائية ، اللهم إلا ما حصله من اللغة التركية ، فلقد كان يحذقها كدأب أمثاله من أولاد الذوات في ذلك العهد ، بحكم بيثتهم وكثرة حديثهم بهذه اللغة مع آبائهم ، وأسماهم ، وجوارهم وأغواتهم .



وقضى أبوه ، وأزل له بالارث ما قضى الشرع من تلك الضياع والبيوت والمجوهرات والدنانير . وكان ذلك شيئاً كثيراً (١) . وكان كلفاً شديداً الكلف بالدولة التركية ، لا يرى جيشاً أقوى من جيشها ، ولا أسطولا أضخم من أسطولها ( وإن كان محبوباً عن الأنظار الآن ) ولا سياسة أحكم من سياستها ، أما الحديث في « المايين » ورجال « المايين » والسلطان وما أدراك ما السلطان ، فذلك شيء لا تتناول إلى وصفه الأقلام . شغل هذا ذهن الرجل حتى استغرقه ، وملك عليه جميع حواسه ، واستهلكها استهلاكاً ، فلا يحتويه مجلس في داره أو في دار غيره ، أو في المقهى ، أو في قطار السكة الحديد ، إلا تحدث في هذا وأسرف في وصف ما رأى من عظمة تركيا ، ودهاء سياستها ، وقوة جيشها ، وضخامة أسطولها أيضاً !

ثم بدا له فجمع نحو أربعين غلاماً أفرغ عليهم ثياباً عسكرية تركية ، ودعا برجل من أساتذة الموسيقى ، فقام على تعليمهم وتمارينهم في فنون الموسيقى التركية ، وجاءهم بأحسن الآلات ، وزودهم بأكثر ما دون من « النوتات » وأقام لهم داراً واسعة في إحدى ضياعه ، فاذا أقبل عيد جلوس السلطان أو عيد ميلاده أو غير ذلك من المناسبات ، دعا بالموسيقى إلى القاهرة . فجعلت تطوف عازفة بشوارعها الكبرى ، وهو يتقدمها وعليه الحلة العسكرية التركية . على أنه كان متواضعاً ، فلا يضع على كتفه إلا شارة أمير اللواء ( ميرالاي )

(١) لقد أضع الرجل كل هذا ، ولم يبق له ما يساوي درهما واحداً .

التي نالها بكل استحقاق في أثناء خدمته في الجيش العثماني ، وما أبلى في حروبه الكثيرة بعد تخرجه من المدرسة الحربية هناك ، متفوقاً على الأقران في الامتحان !

وهنا أرجوك ، يا سيدي القاري ، ألا تكون فضولياً فتسأل : متى كان سعادته في القسطنطينية ومتى انتظم في المدرسة الحربية ، ومتى غزا وقاتل إذ هو لم يغيب عن عيون أهل مصر في يوم من الأيام ؟ لا تكن ، بالله ، فضولياً ، فتوجه إلى نفسك أو إلى غيرك مثل هذه الأسئلة . وأنت ، على كل حال ، حر في تقبل الحديث وفي رده ، ولاخير في هذا الرد على أحد ، والله در العامة إذ يقولون في مثل هذا المقام : « البائرة على بيت أبوها ! »

وبعد ، فقد عرفت أن صاحبنا قائد عسكري من أمهر قادة الجيش التركي ، وما عرض أحد بين يدي مجلسه لذكر موقعة حربية حديثة ، إلا هتف بما أبلى فيها وجاهد ، ونازل وجالد ، وما نصب للعدو من كمين ، وما أوقع بهم من الشمال ومن اليمين .

على أن من واجب الانصاف أن نقرر أن الرجل لم يكن قائداً عسكرياً برياً فحسب ، بل لقد كان في بعض الأحيان قائداً بحرياً من أمهر أمراء البحر ، ولقد أذكر أنه ضمنا به مجلس في قيام الحرب الكبرى الماضية ، وجرى ذكرى الغواصات ، وكيف يعصف « تريدها » بالسفن عصفاً ؟ فقال : اسمعوا : لقد كنت أقود ذات يوم طراداً تركيا في الدردنيل ، فرمته إحدى غواصات الحلقاء « بتريده » فنسف وغرق من فيه في الحال ، ولم يبق منه إلا أنا ونرجيلتي (الشيشة) يحملنا



لوح من الخشب ، ولبثنا على هذه الحال اثنتي عشرة ساعة ، حتى أنقذتنا سفينة عابرة ، وكانت الشيشة هي سلوقى فى هذه الساعة المهولة ! فقال له خبيث من الحاضرين : ألم تنطفى الشيشة يافلان بك

فى كل هذه المدة ؟ فأجاب من فوره : ما أنا كنت بكركر فيها !

ومن أروع عبقرياته التى لا تلحقى أبداً ، والتى تعز على طول الزمان ، وتعصى ، أننا كنا فى بعض الأمسية نسمر فى دار قريب له ، وكان معه أكبر أولاده ، وكان ذلك فى أثناء حرب البلقان سنة ١٩١٣ على ما أذكر ، وجعل الحاضرون يهتفون بمفضل رءوف بك قائم الطرادات حميدية ، ويشيدون بجرأته ومهارته ، وفعله الأفاعيل بطرادته فقال : ألا تعرفون أن رءوفاً هذا هو ابنى ؟ فلم يتدأخلنا شك فى أنه يعنى أنه تلميذه ، تخرج عليه فى مدرسة البحرية ، فلعله كان أستاذاً فيها أيضاً . ومن يدرى ؟ فلما قلنا له فى ذلك ، قال : بل ابنى من صلبى لا تلميذى ، فقال ابنه ، وكانت سنه تبلغ نحو الثامنة عشر : وهل سبق لك يا أبى أن تزوجت غير « نينتى » ؟ فأجابه فى عنف و غضب بل هو ابنى من أمك . أخرج بقى وأخرج من هنا . فتولى الفتى ساكتاً مبهوتاً ! وأظن أن هذا أيسر جزاء ، لمن لا يعرف شقيقه الأكبر !

رحمه الله ومن مات من رصفائه الأجلاء ، وبسط فى أعمار تلاميذهم من الأحياء ، حتى يبلغ الفن على ألسنتهم ما هو مقدور له من القوة والنماء .

## تقاليد الفن في مصر

وكانت مصر إلى عهد قريب حريصة شديدة الحرص على التقاليد ،  
فكانت ، من هذه الناحية ، أشبه بانجلترا ، إذا لم يكن أهلها أشد  
محافظة من الانجليز .

والتقاليد ، ولا ريب ، من مشخصات الأمة ، وعنصر من  
عناصر مقوماتها في الحياة . على أننا جعلنا ، من أعقاب الحرب العظمى  
إلى الآن نهديها بأيدينا هدماً ، وننسفها ، بكل ما يدخل في طاقتنا ،  
نسفاً ، إما لجرد المحاكاة والتقليد ، وإما لحض الاغراب والائتيان  
الجديد ؛ ولو كان هذا الجديد الغريب شمجاً مليحاً ناشراً على  
الأوراق !

وليس يتسع هذا المقال بالضرورة ، للحديث عن جميع تقاليدنا  
التي كنا نعتنقها إلى ذلك العهد القريب ، ولا عن أكثرها ، فذلك  
شيء يطول على الاحصاء ؛ ولهذا أجرد مقال اليوم للحديث عن واحد  
منها ، وأعني به الغناء .

وقبل أن أخوض في لجة الموضوع ، أنبه إلى أن مصر من أكثر  
الأمم ، إن لم تكن أكثرها جميعاً ، تلويحاً للتغني والترنيم ، فهي  
تتغنى بقراءة القرآن الكريم ، وبالأذان للصلاة ، وما يتقدم أذان



الفجر من أهازيج السحر ، وكذلك تتغنى بالمولد النبوى الشريف ،  
وتتغنى بالانشاد وفى حلق الأذكار . وأنت خبير بأن غناءها الرسمى  
هو التخت ، وللعامّة الغناء البلدى أو المحلاوى ، يوقعه موقعوه على  
صوت المزمار البلدى المتخذ من القصب الفارسى ( الغاب ) .

ولا تنس غناء الصهبة وهذا خاص بجماعات الحشاشين ،  
يوقعونه فى مقدمات الأعراس ؛ وقد زاد العصر الحاضر على كل هذا  
المنولوج وما إليه .

أما الموسيقى الآلية ، فعندنا منها النحاسية المعروفة ، والطبل  
البلدى ، ولا زال معروفاً أيضاً ، والنقارية أو النقرزان ، وكانوا ينقرون  
عليه فوق ظهور الجمال ، بين يدي موكب العروس . ولا يزالون  
يضربون به فى ذيل الحمل الشريف . وقد زادنا العصر الحديث  
الموسيقى الوترية ( الأركسترا ) .

وقد تجاوزت ألواناً غير يسيرة من الموسيقى ، لأن شأنها غير كبير .  
وبعد ، فلست أدعى العلم بتقاليد كل لون من هذه الألوان ،  
ولا بما كان يأخذ به أصحابه أنفسهم ، ويلتزمون به ولا يعدونه فى كبير  
من شأنهم ولا صغير . ولكننى أعرف شيئاً من آداب بعض هذه الفنون  
منها ما شهدته بنفسى ، ومنها ما أرويه عن الثقات الصادقين . ومن  
هذا وهذا ما عفى عليه الزمان ، ومنها ما لا يزال قائماً إلى الآن .

فمن آداب تلاوة القرآن الكريم ، أو من التقاليد المرعية فى  
ترتيبه ، إذا صح هذا التعبير ، أن قارئاً له قدر ووزن لا يمكن أن  
يبدأ ترتيله إلا جاريّاً فى نغمة البياتى حتى إذا قضى فيها وقتاً طويلاً

أو قصيراً ، ثنى عنان التنعيم إلى غيرهما ، فلبث فيها ما شاء أن يلبث ، ثم أقبل على غيرها . وهكذا ما يزال يتقلب في فنون النغم كلما بدا له أو كلما توسم في إحداها الاستراحة وشدة التطريب . وقد يعود في أثناء القراءة إلى نغمة البياتي فيصيب منها أيضاً ما شاء أن يصيب . وكيفما كان الأمر ، فانه حين يؤذن الوقت بالانتهاء لا بد له من أن يختم بهذه النغمة ، مهما يجشمه التحول إليها من النغم البعيد وكثيراً ما يكون هذا التحول سريعاً ، وداعياً إلى الاعجاب !

فمتقدمو القراء في مصر لا يبدأون قراءتهم إلا من البياتي ، وبه دائماً يختمون . وكذلك تسمع القرآن عن طريق الراديو من المشايخ العظام ، محمد رفعت ، وعلى محمود ، وعبد الفتاح الشعشاعي ، ومحمد الصيفي ، وطه الفشنى ، وغيرهم من مشاهير المرتلين .

على أنني لا أدري من أين جاء مصر هذا التقليد ، ولا متى كان مهبطه من الزمان القريب أو البعيد ! ولعل ذلك يرجع إلى أن هذا البياتي هو نغمة البلد الأصيل ، أو هو من أصل النغم التي تتقلب فيها حناجر المصريين . ففي الحق أن هذه النغمة ، فوق سعة آفاقها ، وتقبلها لكثرة التصرف والتلوين ، فان المصرى يجد من الاستراحة إليها والأنس بها ، ما لا يجد لكثير . أو لعله يرجع إلى هدوء في طبيعتها ، يلين للحناجر قبل أن تصقل وتجلى ، ثم يتلطف لها بعد ما نهكها الجهد الشديد .

هذا ما كان وما لا يزال قائماً من أدب ترتيل القرآن الكريم



عند كبار المرتلين . أما أهازيج السحر التي تتقدم أذان الفجر ،  
وهي أناظيم فيها استغفار ، وفيها تشفع بالنبي صلى الله عليه وسلم ،  
وفيها توسل بآل بيته ، تسلييات الله عليهم ، ويدعوها العامة الأوّلة  
فهذه كان لها في القاهرة تقليد جميل .

ولقد تعرف أن القاهرة كانت إلى عهد غير بعيد لا تشغل إلا  
رقة ضيقة من الأرض ؛ وكانت المساجد والزوايا تتمتع فيها بنسبة  
كبيرة من عدد المباني ، فاني اضطربت رفعت لك المساجد الأثرية  
الجميلة ، والزوايا اللطيفة المتواضعة التي لا يكاد يخلو منها رفاق من  
الأزقة أو درب من الدروب .

وقد حدثني الثقات الصادقون من مشيخة القارئین ، أن جميع  
مؤذني المساجد في القاهرة كانوا إذا ظهروا المآذن للهِتاف بالأولى  
أو الأوّلة وقفوا وقد أرهفوا آذانهم ، وعلقوا أنفاسهم في انتظار الأمر  
الذي يصدر إليهم عن مئذنة الشيخ صالح أبي حديد بالنعمة التي  
يجرون فيها الأهازيج ليلتهم . فاذا جلجل مؤذن الشيخ صالح بنعمة  
الرصد مثلاً ، أسرع مؤذنو المساجد حوله بالصياح بها ، وأخذ إخدم  
مجاورهم ومن تقع للاسماع أصواتهم ، وهكذا فلا تمضي دقائق  
إلا والقاهرة كلها تجلجل بنعمة الرصد . وإذا بدأ بالبياتي ، أو بالحجاز ،  
أو بالسبكيه الخ . . . فهكذا وما شاء الله كان !

وهذا إذا دل من ناحية على القصد إلى ضبط المؤذنين لأصواتهم ،  
وتحكمهم في نبراتهم ، وعدم تأثرهم بالأنغام الأخرى ، وإلا اضطروا  
إلى الخطأ ، ودفَعوا برغمهم إلى النشوذ ( النشاز ) — إذا دل هذا

على هذا فإنه في الموقف نفسه دليل على أن أهل مصر ، أو سكان القاهرة على الأقل ، كانوا أصحاب فن ، وأهل ذوق ، وعشاق تطريب !

وإذا ذكرنا أن مسجد الشيخ صالح أبي حديد ، حديد<sup>هـ</sup> ، لأن الذي تقدم باقامته هو ساكن الجنات الخديو اسماعيل ، وقد أدرك الشيخ في الحياة ، وكان له في صلاحه وولايته اعتقاد كبير - إذا ذكرنا هذا رجح الظن بأن هذه العادة أو هذه الزعامة تحولت إلى هذا المسجد من مسجد آخر عتيق .

وقبل أن أعرض لما أعرف من أدب الانشاء على الذكر ، أرى من الخير الكثير أن أنبه إلى أن المنشدين الذين يجرون من الصنعة على عرق ، لا يمكن أن يفسحوا في حناجرهم إلا على ذكر السادة الليثية ، نسبة إلى الامام الليث بن سعد المصري ، رضى الله عنه ؛ وذلك لأن أهل هذه الطريقة أصحاب فن موسيقى بقدر كبير ، ففي طرائقهم بالهتاف باسم الله تعالى « لا إله إلا الله ! الله ! الله ! » ، ما يمكن للمنشد المفتن من أن يلقي أهازيجه ، موشحة كانت أو دوراً أو مقطوعة شعرية أو موالياً ، غير متعثر ولا متحير ، بل لقد يكون ذكر الذاكرين لاسم الله تعالى ، على أساليب هذه الطريقة ، خير ، يعينه على الإنشاد ، ويهديه في سبيله السبيل .

وإن أنس لا أنسى السيد على الركبي ، رحمة الله عليه ، وكان قائد الذكر الليثي ، أو ضابط الايقاع ، في تعبير هذه الأيام ، وقد



أدر كته شيخاً تقدمت به السنون ، مرسل اللحية البيضاء ، وقسماته تنبئ عن طيبة قلب ، ولطف نفس . فاذا جلس أعلام المنشدين لشأنهم في صدر المجلس ، جعل يدير أساليب التنغيم بالذكر تنغياً فنياً يهيب لأولئك المنشدين أداء مهمتهم على أدق القواعد وأحسن الوجوه . ولقد يصرفهم هو في فنون النغم ، بتوجيه الذاكرين إلى هذه الناحية أو هذه الناحية ، مسرعاً مرة ومتمهلاً أخرى ، ضابطاً الوحدة بنقرة بخاتمه الفضى على حق سعوطه النحاسي . فكان بحق أكفاً « مايسترو » رآته العيون في هذه البلاد .

والأدب ، أو التقليد الذي أحصيه لهؤلاء القوم ، أنه إذا جلست الجماعة للانشاد ثم فرغوا مما استفتحوا به مجتمعين ، جعل كل منهم يتغنى فرداً مستغنياً بالنبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته ، تسلياً لله عليهم ، ثم عاد إلى التغنى بييت أو بيتين من الغزل الرقيق ، والذي أسوق له القول ، هو أن أول من يبدأ بالانشاد يجب أن يكون أعلى الحاضرين سناً ، ولو كان أنكرهم صوتاً ، ثم يليه من يكبر سائرهم ، وهكذا . وقد كان يحيى المرحوم الشيخ يوسف المنيلوي ، في بعض الأحيان ، آخر المتغنين ، وهو غير مدافع ملك المنشدين !

## فن الحزن

لأول مرة في حياتي أدس قلمي بين قلمين يتحاوران ويتنازعان في قضية من قضايا الدنيا أو الدين ، وحين كنت قاضياً لم يكن يخرج صدرى بقضية قدر حرجه بقضية يقتحم فيها على المتخاصمين ثالث ، فتتشعب به وجوه الخلاف ، ويطول أمد النزاع . ويجتاز صدرأ كبيراً من هم القاضى في البحث والتحرى عما إذا كان هذا الخصم الثالث جاداً في دعواه ، جارياً على عرق من الحق في مطلبه ، أو هو متواطئ مع أحد الخصمين ليدفع يده عن بعض حقه ، أو ليدفعها عن حقه كله ؟ ولقد بان لى بعد امتحاني بمنصب القضاء بزمن يسير أن أكثر قضايا المحاكم الشرعية التى يقتحمها هؤلاء الخصوم ، هى قائمة على التواطؤ مع أحد الطرفين ، كيداً وعتناً ، وأذى للطرف الآخر بغير حق ولا سبب مشروع ! على أن ذلك لا يعنى القاضى من البحث والتحرى وشدة التدقيق ، فلعل هذا الخصم الثالث جاد ، ولعله صاحب الحق دون المتنازعين جميعاً !

ولقد كان من أثر هذا فى نفسى أن أكره إليها الدخول بين متجادلين ، ولو فى شأن عام ، ولو فى قضايا العلوم والفنون والآداب ، فيما يقع عليه الخلاف بين الباحثين والكتاب . ولكنى رأيت أن



حجتي ، في هذه المرة ، واضحة ، وأن سلطاني في الأمر مبين ، بحيث لا يستطيع أحد المتنازعين أن ينكره أو يكابر فيه ، ويعتريه بشيء من الشك كثير أو قليل ، إذآ فمن الاثم أن أسكت وخاصة إذا كان النزاع إنما يتعلق بالشأن العام ، وعلى الأخص إذا لم يكن بيني وبين أحد الطرفين نزاع ولا خصام !

ولقد كتب صديقي الأستاذ المحقق أحمد أمين في « الثقافة » مقالا ممتعاً ، يدعو فيه إلى استغلال فن السرور . ومما جاء فيه : « مع الأسف ألاحظ أن كمية السرور في الشرق قليلة ، كما لاحظت من قبل . أن كمية الحب في مصر والشرق قليلة . وليست تنقصنا الوسائل ، فجونا جميل ، وخيراتنا كثيرة ، وتكاليف الحياة هينة ، ووسائل العيش يسيرة ، ومصايب الشرق من الحرب أقل منها في الغرب ؛ ومع هذا كله لا تزال كمية السرور في الشرق أقل .

« أكبر سبب لذلك في نظري أن الحياة فن ، والسرور كسائر شؤون الحياة فن ؛ فمن عرف كيف ينتفع بالفن استغله واستفاد منه وحظى به ، ومن لم يعرفه لم يعرف أن يستغله وشقى به . »  
وسرعان ما انبرى له صديقي العظيم الدكتور طه حسين بك ، فاثني على الفكرة ، بادی الرأي ، ثم راح يشكك في إمكان تحقيقها ، ثم ما لبث أن أطلق العنان لمداعباته العذبة الفخمة ، التي تَسُحُّ في الوقت نفسه فناً وأدباً . وجعل يتساءل عن الجماعة التي ينبغي أن تضطلع بتنظيم « فن السرور » ، وهل تكون من بين علماء

النفس ، أو من بين علماء الاجتماع ؟ وبعد أن دوخ الفكرة بشدة الترحيح بين هاتين الفئتين ، انطلق يحيرها بين « جهات الاختصاص » . إذا صدق هذا التعبير الديواني ، فإذا هي قد ضلت المسالك جميعاً ، فلن تجد إلى مثابها السبيل !  
وأخيراً ، وأخيراً جداً ، رأى الدكتور طه بك أن يعدل بالحديث إلى ما هو أرفق وأقوم ، وأجدى وأنفع ، وأيسر كلفة ، وآكد تحقيقاً ، قال حفظه الله :

« ومن المحقق أني لم أكد أفرغ من قراءة مقال الأستاذ أحمد أمين وأتخيل الآفاق البعيدة التي تمتد أمام اقتراحه أو أمام فكرته ، حتى أخذني الحسد ، ورغبت في ألا يستأثر من دوني بإنشاء فن السرور ، وأبيت إلا أن أكون مثله صاحب فكرة خطيرة ، وداعياً إلى إنشاء فن خطير . فأملت هذا المقال لأدعو به إلى إنشاء فن الحزن ، وأنا أبرع من الأستاذ أحمد أمين وأمهر في التصور . والفن الذي أريد إنشائه لا يكلف مشقة ولا جهداً ، ولا يحتاج إلى تأليف لجان ، ولا إلى تحديد اختصاص ولا إلى نشر مقالات . وإنما يحتاج إلى شيء واحد يسير جداً ، هو أن تنظر في الحياة المصرية ، ثم تعود إلى نفسك لتفكر فيما رأيت . وأنا ضامن لك بأنك ستجد في هذا النظر وفي هذا التفكير ، مصادر حزن لا تنقضي ، وألم لا يزول .

« وإذا كان السرور خيراً لأنه يرفه على النفس ، ويجب إليها الناس ، فقد يكون الحزن خيراً أيضاً ، لأنه يدعو إلى العمل ويدفع إلى محاولة الإصلاح » اهـ .



وبعد ، فلست أعرض لما اقترح الأستاذ أحمد أمين من إنشاء فن السرور ، ولا أمتدح الفكرة ولا أهجنها ، وعلى ذلك فليس بينى وبينه أى نزاع ، وقد كفيت المؤونة من هذه الناحية ، والحمد لله ، بقيت الناحية الأخرى ، أعنى فكرة الدكتور طه بك حسين ، وهى التى تدعو أو يدعو هو بها إلى إنشاء فن الحزن . فهى التى نكثرت عليها الحديث ، والله المستعان .

وفى رأى أن صديقى الدكتور طه قد غلط مرتين لا مرة واحدة . غلط بدعوته أولاً إلى إنشاء فن الحزن ؛ وغلط بزعمه ثانياً أن إنشاء هذا الفن لا يكلف مشقة ولا جهداً ، ولا يحتاج إلى تأليف لجان الخ . . . .

ولا أدرى كيف غاب عن صديقى أن فن الحزن فن قديم ، ولعله من أقدم الفنون . ومالنا نساغر إلى التاريخ البعيد ، فننتقى الأخبار من نقوش الآثار ، وحسبى أن يعلم الدكتور أكثر مما أعلم أن الحزن كان فى صدر الاسلام فناً له خطر غير قليل . وأظن أن أحداً لا ينازعى فى أن المراد بالحزن فى هذا المقام إثارتة وإذكاؤه ، لأن أحداً لا يرتجل الحزن ارتجالاً ، ولا يستحدث الشجن استحداثاً .

أعود فأقول إن الدكتور أعلم منى بأن « الحزن » على هذا المعنى ، كان فى صدر الاسلام فناً له خطر ، والدكتور أعلم منى بأن ابن سريج ، وأن الغريض كانا كلاهما نائحين ، قبل أن يكونا مغنيين . وهما من نعلم ، جلاله فن ، وجودة صنعة ، وبراعة أداء . وابن سريج والغريض بعد إذا غنيا وذهب لهما فى الغناء صيت وذكر ، لم يكن أحد منهما

ولا من أضرابهما ليخرج من تلحين الأصوات ، لتنوح بها النائمات ،  
في جلى الحادثات .

وهذه كتب الأدب العربي بأخبار النياحات . فلندع إذاً هذا  
الحديث المعاد .

أما مصر ، فلها في فن الحزن عرق عريق ، وخاصة في العصر  
الحديث ، ولا يزال هذا الفن قائماً إلى الآن ، وإن جعل يقبل على  
الدثور ، مع الأسف العظيم ، ما دمنا نرانا بحاجة إلى إنشاء فنون  
الأحزان !

لا يزال في مصر إلى الآن الندابات<sup>(١)</sup> ، ولا يزال فيها النائمات ،  
أو بالتعبير الشائع المعددات<sup>(٢)</sup> أعاذنا الله وأعاذ القراء جميعاً من  
الحاجة إلى هؤلياء وإلى هؤلياء .

أما الندابات فجماعة من النساء يلقين ترانيمهن على نقر الدفوف  
في قوة وعنف ، إذ النساء من أهل الميت يشبن على هذا النقر وثباً ،  
ويوقعن على هذا النبر ، لا ضرباً على أوتار العود ، بل لطماً على  
الخدود ، حتى يفرى أديمها ، وتهرى لحومها .

وأما النائمات المعددات فلا دفوف في أيديهم ، ولا يصوتن بالعديد  
إلا فرادى . وكلما انتهين إلى موقف عجز النساء جميعاً بالصياح ،  
وبكين فاستعبرن ، سواء في ذلك أهل الميت ومن لا شأن لهن به من

(١) الندابات : ندب الميت : بكاه ، أو عدد محاسنه ، والاسم منه الندبة بضم  
النون .

(٢) عدد الميت : بتشديد الدال الأولى ، عد مناقبه ووصفها .



المعزيات ، ويظل هذا ثلاثة أيام من وفاة الميت ، وكل يوم خميس ، ثم تحتم هذه النياحات بيوم الأربعاء .

ولقد فاتنى أن أقول لك إن المعددات منهن المحترفات ومنهن الهاويات . وإن جماعات الهاويات ليفعلن هذا احتساباً ، أو مجاملة لأهل الميت ، أو مصانعة لعواطفهن إذا كان الدهر قد امتحنهن أيضاً فى كريم . أما الندابات فلا يكن إلا محترفات .

ولكى تعرف مبلغ فن الحزن فى مصر ، والاسراف فى إذكاء عاطفة الأسى والشجن ، أنك كنت إذا سعت صباح يوم الخميس فى أى حى من أحياء العاصمة ، رأيت الجماعات من النساء عليهن السواد ، وقد ضربن بالخمر السود على رؤوسهن وعوارضهن ، وفى أيديهن المناديل السود ، وهن يمشين على غير هدى ، حتى تصادفهن مناحة ، فينزلقن إليها ، ما يعرفن الميت أو الميتة ، ولا هن عهد بأحد من أهلها أبداً . وذلك كله انتهازاً للفرصة السعيدة فى البكاء الحار ، وسفح الدمع السخين .

ولقد تجاوز فن الحزن المصرى نطاق التبكى على الموقى إلى سائر مواقع النساء ، حتى لترى كثيرات ممن يطلبن المناحات ، إنما يطلبنها ليعولن ويطحرن أثقالاً من الدموع على ما لا سبب له إلى الموت ولا إلى الأموات . فإتكاد النائحة تؤذن بفترة الاستراحة entr'acte بعد الفصل ، حتى تقبل عليها النساء من كل جانب ، فيلقين فى حجرها بالدرهم ، ويدعوها العامة « النقوط » . هذه تسألها أن تقول فيمن هجرها زوجها ، وهذه فيمن اتخذ عليها الضرة ، وهذه فيمن

مال بخت بنتها بزواجها من المضار غير الكف ، أو بكيد حمايتها وكثرة  
إيذائها ، وتلك في خيبة سعي ولدها ، وأخرى في سرقة حليها ، وما  
ادخرت من المال في الدهر الأطول لليوم الأسود الخ . . .  
وعند النائحة المعددة الكف ما يركى نار الأسى على كل هذا ،  
ويستدر الدمع الغزير ، فإذا لم يكن حاضرها شيء منه ارتجلته ارتجالاً ،  
حيث تصيح صاحبة الشأن صياحاً متداركاً ، أو تبكى وتنشج حتى  
تسكن عاطفتها وترضى !

والآن ، والآن فقط ، لقد تفتنت إلى أنني ظلمت صديقي الجليل  
القدر الدكتور طه حسين ، في ما لعل قد عزوت إليه ، من قريب  
أو من بعيد ، تجاهله قيام فن الحزن متين القواعد ، ثابت الأصول ،  
مفصل الفصول . فالدكتور طه بك أجل من أن يتجاهل شيئاً ليعاز  
صاحبه في الحوار !

وأكبر الظن أن الدكتور ، على علمه الواسع بفن الحزن القديم ،  
وعلمه الضيق بفن الحزن القائم في مصر إلى الآن ، لم ير شيئاً منهما  
قادراً على أن يؤدي مطالب العصر الحديث ، وكذلك أسقطهما من  
الحساب . لأن العصر الحديث عصر الجماعات والشركات والقوميات ،  
لا عصر الفرديات التي لا تتجاوز أقطار الأشخاص . هو العصر الذي  
ينبغي أن تندب فيه المرافق العامة وتبكي المنافع القومية . وهذا حق  
لا ريب فيه ، وهذا هو الأشبه بتفكير أمثال الصديق العظيم .  
بقي أن الدكتور ، مع هذا تراه يتهاون فن الحزن ، ذاهباً إلى



أنه يكفي أن ينظر المرء في الحياة المصرية ، ثم يعود إلى نفسه ليفكر فيما رأى ، حتى يجد في هذا النظر وهذا التفكير مصادر حزن لا تنقضى وألم لا يزول .

لا يا سيدي الدكتور ، فليس الأمر بهذا الموضع من اليسر اليسير ، فكلنا ينظر في الحياة المصرية ، وكلنا يعود إلى نفسه ، يفكر فيما رأى . ومع هذا فلم يشق أحد منا حنجرته بصيحة ، ولا صك له خدأ ، ولا تبادر له دمع غزير ولا رقيق !

إذا لم يبق لنا بد من قيام فنلحزن قوى محكم ، عظيم الخطر ، بليغ الأثر ، ما دامت المصالح العامة في مصر لا تستقيم قناتها إلا بشوران الأحزان وغليان الأشجان .

وإذا كان الفن القائم لا يوافق مطالب العصر ولا يحسن الترجمة عن حاجاته ، فلنعالج تحويله ، في رفق أو في عنف حتى يستطيع أن يقضى الحاجة ، ويبلغ الطلبة ، وينيل الأرب ، وذلك باطلاق أصوات النياحة في الأسباب العامة ، بدل إرسالها في الشؤون الخاصة ؛ ولنوع الندبة والتعديد في شكل الولد ، وهجر الزوج ، واتخاذ الضرة ، وسوء بخت البنت في زواجها ، وشقوة الولد ، وضياع السبد واللبد ، الخ . . . ونصوغ الأناظم في انحطاط مستوى التعليم ، وتدهور الأخلاق ، وتعطل الشبان من حملة عليا الشهادات ، وإهمال الانتفاع بمساقط مياه الحزان والاعراض عن الجد في استغلال الثروة المعدنية ، ومشكلة القطن ، والغلاء المصطنع ، وأزمة الزواج بين الشباب ، وإيثار المحسوبيات على الكفريات . ولا بأس بفرض أنشودة للموظفين

المنسيين ، فى زوايا المصالح والدواوين الخ . . . ، مما لو طرى  
الناظمون نسجه ، ورققوا لفظه ، وجود الملحنون لحنه ، وأجروه فى نغم  
بائس حزين كالصبا والرمل مثلاً ، ثم أحسن النائحات أو النائحون  
ترتيله وتوقيعه ، لأحزن وأبكى ، وأشجن وأشجى ، وهيج الزفرة ،  
واستدر العبرة !

وكذلك ترقى سريعاً مرافق البلاد ، وتزول عنها أسباب الضعف  
والفساد !

وأرجو ألا تكون شخصية اللجنة التى يعهد إليها بهذا الإصلاح  
العظيم أو جهة الاختصاص ، مما يكف عن مباشرته أو يعوق تحقيقه .  
ولعل من الخير فى هذا الباب ، أن يعجل بإنشاء كرسي لفن  
الحزن الحديث فى كلية الآداب .





## الموسيقى المصرية

### قديم وجديد

من بضعة أسابيع سمعت من الراديو حديثاً لصديقي المحقق الأستاذ أحمد أمين ، أذاعته علينا محطة لندن .

وقد تناول الأستاذ في هذا الحديث وفي حديث قبله قديم الأدب وجديده ، وعرض في الأخير عرضاً يسيراً للموسيقى ، خلص فيه إلى أنها تحتاج إلى نبي جديد ، كما أصبح الشعر يحتاج إلى نبي جديد .

وإذا كان الأستاذ المحاضر لم يطل الكلام في الموسيقى ، ولم يجره على جهة التفصيل ، فلغير الموسيقى كان مساق الحديث .

وأرجو أن يأذن لي أن أتبسط بعض التبسط في حديث الموسيقى ، وأن أتولى ما أجمل بشئ من التفصيل .

الموسيقى في حاجة إلى نبي جديد ! نعم ، هي في حاجة إلى نبي جديد ، لو أن الأنبياء يبعثون لتقويم الأذواق وهدايتها الصراط المستقيم !

الموسيقى في أشد الحاجة إلى زعيم مصلح يهدي إلى الرشد ، أو إلى قائد يفتح بالسيف ما استغلق على جهد الكلام !

في الحق ، لقد أضحت حالنا من هذه الناحية في أشد الحاجة إلى الفتح المبين .



ولست أذهب بك ، يا سيدي القاري ، في التدليل إلى بعيد ؛  
 فلقد فتحت أخيراً إحدى كبريات الصحف في مصر باباً تنشر فيه  
 آراء الناس في محطة الاذاعة المصرية ، ولو قد اطلعت على هذه الآراء  
 فيما تذيعه المحطة من ألوان الموسيقى وفنون الغناء ، لتعاطمك الأمر  
 وراعك ، وحير لبك ، وذهب بك منه العجب كل مذهب . وذلك  
 بأن الكاتبين جميعاً ساخطون متبرمون متأفون . وليس عجباً أن  
 يتوافق جمهور الناس على السخط والتبرم ، فان من الأشياء ما لا  
 يعجب جميع الناس ، بل إن منها لما يعجب أحداً من الناس ، بل  
 إن مناط العجب هو أن نصف هؤلاء الساخطين المتبرمين ،  
 إنما يسلقون المحطة والقائمين عليها بأحد الأقسام ، لأنها تردد على  
 أسماعهم الغناء البالي القديم ، ولا تصغي الوقت كله للمستحدث  
 الجديد !

أما النصف الآخر فيسلق المحطة أيضاً بأحد الأقسام ، ويرميها  
 بكل عاب وذام ، لأنها تصدع آذانهم ، وتفرق أذواقهم بأسماعهم  
 هذا المستحدث الجديد ، ولا تتحرر وقت الغناء كله للعتيق  
 القديم !

ولقد تفرق أذواق الناس ، ولقد تتغير أحكامهم على الأشياء ،  
 وخاصة في هذه الفنون الجميلة ، التي يقصد بها إلى التطريب والتلذيد ،  
 لقد يقع ذلك ، وهو واقع في كل زمان ومكان . ولكن اختلاف الآراء  
 واختلاف الأحكام على ما يتنغم به من فنون الموسيقى الآن ، ليس له  
 شبيه في أي زمان ولا في أي مكان !

ذلك بأن المجموع في كل أمة مهما اختلفت فيه أذواق الأفراد وافترقت مذاهبهم في ألوان الموسيقى ، فإن هناك ذوقاً عاماً يجمع شملهم ويضم جمعهم ، فهم إذا افترقوا أو اختلفت مذاهبهم ، فاختلفت أذواقهم إنما يكون في حدود هذا الذوق العام . ومن هنا نجد الاختلاف في هذا الباب يسيراً والافتراق رقيقاً ، كان يفضل هذا كذا على كذا ، ويستريح هذا إلى كذا أكثر مما يستريح إلى كذا ، أما أن ما ينشز على سماع هذا مما يشيع الطرب في ذلك ويدخل عليه الأريحية وبالعكس ، كما هو الشأن فينا الآن ، فهذا كما زعمت لك مما لم يقع له شبيه في أي زمان ولا في أي مكان !

وإن شئت بعد هذا أن تثبت كل شيء في موضعه ، وتجري عليه حكمه الصحيح الصريح ، فقل في غير تردد ولا خشية : إن الذوق الموسيقى العام قد فقد فقداً في هذه الأيام . فاذا أبيت إلا رفقاً في الحكم فقل إن الذوق العام الآن في حال من الثورة والاضطراب ليس من اليسير أن ينتهي معها إلى قرار .

كان يغنى البلد في أعقاب الجيل الماضي من أعلام المغنين المرحومين عبده الحمولى ، ويوسف المنيلوى ، ومجد عثمان ، ومجد الشنتورى ، وعبد الحى حلمى ، وسلامة حجازى ، وغيرهم . وكان لكل من هؤلاء طريقته في الغناء وأسلوبه ، ولكل منهم شيعته ومؤثروه على غيره . يلتصقون بمجلس غنائه أنى كان ، ويطلبونه مهما جشمهم الأمر من الجهد والمشقة ، ويرددون تنغيمه إذا خلوا إلى أنفسهم أو إذا خلا الصحاب من أهل المراح إلى الصحاب . ومع هذا لم يزعم



أحد أن غناء غير من يؤثر ينشز على سمعه ، أو يخمش مزاجه ، أو يفرق ذوقه ، كما هو حادث الآن ؛ بل لقد كان يسمع جميع الناس من جميع هؤلاء ، فيستر يحون إلى غنائهم ، وقد يذهب بهم الطرب كل مذهب . وذلك بأن اختلافهم إنما كان في حدود هذا الذوق العام فهو لا يعدو إيثار فن على فن ، واستجادة مذهب أكثر من استجادة غيره . على أنه في كل حال نستملح مستجيد . كانت تلاحين الملحنين قارة مطمئنة ، تجرى على قوانين مرسومة ، وتجول في حدود معلمة مقسومة . وكانت الأذواق كذلك قارة مطمئنة لا حؤول فيها ولا اضطراب ؛ فلا يكاد غناء المغنى المجيد يقرع السمع ، حتى تراه قد سال من فوره في النفس ، ونفذ إلى مجامع العاطفة ، فأشاع طرباً ، وبعث أريحية ، أو حرك شجى وأثار شجنًا .

وأرجو ألا تفهم من كلامى هذا أن الغناء في ذلك العهد كان جامدًا لا يتحرك ، واقفًا لا يتقدم ، عاتياً لا يلين لتلوين ولا تجديد . بل لقد كان مفتناً متلوناً متجددًا . ولكن في تلك الحدود التي رسمها الذوق العام . ولهذا كان التجديد يجرى في لباقة ورفق ، فلا ينشز على الأسماع ، ولا تأذى به الأذواق . وناهيك بما صنع عبده الحمولى في هذا الباب . وما صنع جد كثير !

وكيفما كان الأمر ، فلقد كان بين ذلك الغناء وبين الذوق المصرى إلف ، وبينه وبين النفس ود ، حتى لكأنه لاحق بالفطرة ، موصول بالطبع !

## الموسيقى الحديثة

والآن حق علينا أن نميل بالحديث إلى صفة الجديد ، وكيف  
جاءنا هذا الجديد؟

لهذا الانقلاب العنيف في الموسيقى المصرية سببان :  
أحدهما طبيعي ، والأخر صناعي . أما الطبيعي فهو تلك الثورة  
التي زلزلت عندنا كل شيء ، فلم تدع شيئاً من العادات ، والتقاليد ،  
والأخلاق ، وآداب السلوك ، والأزياء ، والفن والأدب ، وغير  
ذلك من مظاهر حياتنا إلا رجته بقدر كبير . وجمهور الناس مهروول  
مغذ إلى تقليد الغربيين في كل جليل ودقيق ، فكان من الطبيعي أن  
يقلدوهم في موسيقاهم ، كما يقلدوهم في غيرها من شؤون الحياة .  
أما السبب الصناعي ، فقد انبعث في هذا البلد شاب موسيقي  
جمع إلى العلم بالفن رهافة الحس ، ودقة الشعور والقدرة القادرة  
على الابتكار والتجديد . وأعنى به المرحوم الشيخ سيد درويش .  
كان المرحوم سيد درويش يلمح النبرة تقع في بعض التنعيم  
الأجنبي ، شرقياً كان أو غربياً ، فيدرك أنها مما لو سوى بعض التسوية  
لأمكن إدماجها في موسيقانا ، ولكن لها حلاوة في الآذان ، وطرب  
للنفوس . وعلى ذلك أدخل على موسيقانا كثيراً من التناغم الأجنبية  
وطبعها فيها . وسرعان ما تقبلتها الأذواق في غير قلق ولا نفور .  
كذلك أراد رحمة الله عليه ، أن يترجم بالموسيقى عن بعض  
المحسوسات فتقدم ، وكان علاجه لما عاجل من هذا في غاية الرفق



والتواضع . وكذلك قدر له فيما أراغ النجاح . ويطوى الردى سيد  
 درويش ، ويطوف بالبلاد طائف ذلك الانقلاب العنيف ، ويأبى  
 الملحنون والمغنون إلا الموسيقى أفرنجية لا يشوبها شئ مما ألفت الأذان  
 من قديم الزمان . وعلى ذلك راحوا يحاكون الموسيقى الغربية التي  
 يسمعونها هنا وهناك ؛ ولكن كيف يحاكونها ولا علم لأكثرهم  
 الكثير بما تنكى عليه هذه الموسيقى الأفرنجية من القواعد والأصول ؟  
 يحاكونها بأن يبدأوا بصياح مثل صياحهم ، ثم عدم الأذن  
 للترانيم بأن تأخذ سمتها ، بل المبادرة إلى ليها عن وجهها حتى تصك  
 الأسماع صكا ، وتطير الأمزجة تطيراً ، فاذا بلغت غاية الجهد من  
 الاضطراب ذات اليمين وذات الشمال ، وبين فوق وتحت ، ووراء  
 وقدام ، وصلت بها صرخة تحكى ما يختم الموسيقى الغربية من الأذنان  
 والأذيان . وكذلك تظن جمهرة ملحنينا ومغنيننا أنهم يحيثوننا بموسيقى  
 غربية لا يلحقها شك ولا ارتياب ، وما شاء الله كان !

وبعد ، فأما تنكير النغم ، وأماليه عن وجهه ، وأما الصراخ  
 في أوله وفي آخره ، فذلك مما لا يعي على أحد ، لأنه لا يحتاج إلى علم ،  
 ولا صلة له بفن ، ولا علاقة له بذوق ، فاذا هو احتاج إلى شئ من  
 فساد الذوق ، فذلك موفور والحمد لله !

ومن هنا كثر الملحنون في بلادنا كثرة أصبحت تجهد العدد ،  
 فلا تكاد تسمع مغنينا حدثاً أو مغنية ناشئة إلا قيل إن هذه الأغنية  
 من تلحينها أو من تلحين ، وكذلك رخص التلحين وأصبح ميسوراً  
 لكل من شاء !

وعلى هذا تفتحت آذان ، وكذلك استدرجت اسم الموسيقى الغربية أهواء . ولا أرى الغربيين ، إذ يكتب عليهم أن يسمعوها إلا أشد تأذياً بها منا نحن المصريين !

تلحين رخيص ، وموسيقى رخيصة ، وفن رخيص . أما التحزن والتفجع في هذه التلاحين ، وأما التمتع وشيوع التخنيث ، فذلك ما نسأل الله السلامة منه للرجولة في هذه البلاد !

ولقد تقول للرجل من كبار الملحنين في ذلك ، فيجيبك في خجل عظيم : وماذا نضع ، وهذه البضاعة هي الرائجة في سوق الغناء في هذه الأيام ؟ وكذلك جعل هؤلاء الملحنون أنفسهم يتبارون في هذا التشويه ، يجنون به عامدين على الفن وعلى الأذواق معاً ما دام القوت يأتي من هذه السبيل !

ولكي تدرك مبلغ رخص هذه التلاحين وهوانها ، لاحظ أنك لا ترى شيئاً منها يعيش حتى إلى اليوم الثاني ، وكيف لما ولد ميتاً أن يعيش ؟

أما الذين لا يزال هواهم إلى القديم ، فهم في برم دائم وملل لا يريم . فإن ما يسمعونه اليوم هو الذي سمعوه أمس ، وسمعوه من سنة خلت ، ومن عشر سنين مضت ؛ ومن شيوخهم من سمعه من ثلاثين وأربعين من السنين يتردد هذا الدهر الأطول على أساعهم بنصه وفصه ، ولفظه وتلحينه ، وكل نبرة وتنغيمه فيه ، وكل ذرة للحلق على موقف من مواقفه ، وكل تسكريشة تختم بها كل فاصلة



من فواصله ، اللهم إلا ما يدخله عليه المغنون من الخطأ والتشويه !  
 ليس هكذا ، أيها السادة ، يكون إحياء القديم . وليس بهذا  
 التكرير الممل إلى حد الازعاج ترضون هوى أصحاب القديم إلى القديم .  
 المراد بالقديم يآيتها المطابع أو الأسطوانات ، هو الفن المصرى  
 القديم ، الفن السلس السهل الذى يتفجر رجولة ويسيل طرباً ، والذى  
 يتحدث إلى كبد المصرى فى غير عسر ولا حاجة إلى ترجمان ، فيحرك  
 فيه من ألوان العواطف ما شاء الله أن يتحرك ، ويشير فيه من الأريحية  
 ما شاء الله أن يثور .

هذا الفن الذى لا يفتأ يتطلع إلى التجديد الرفيق ، لا ينشر على  
 الآذان ، ولا تأذى به الأذواق . وناهيك بصنعة عبده وعثمان والمسلوب  
 وأضرابهم ، عليهم رحمة الله أجمعين .

وبعد ، فالحق أننا الآن فى حال من البلبلة واضطراب الأذواق  
 هى فى أشد الحاجة إلى مبعوث للموسيقى جديد . فليت شعرى هل  
 يطول بعثته على الزمان ؟

## بلاغة التلحين

كنا ، وما برحنا ، نشكو من هذه التطرية التي لحقت الغناء  
المصرى فى السنين الأخيرة ، بل لا غرو على إذا قلت : عن شيوع  
التخنيث فى هذا الغناء ، لا نستثنى على ذلك نظم المقطوعات الغنائية ،  
فى بعض الأحيان ، ولا تلحينها ، فى كثير من الأحيان ، ولا أساليب  
أدائها فى أكثر الأحيان !

تسمع المغنى وكأنك تستمع إلى أنين عليل أو جريح ، أو حشرة  
محتضر ، إذا استثنيت الصرخة الأفرنجية الأخيرة التى لا بد من أن  
تختم بها الأصوات فى هذه الأيام ، ولعلها الصرخة الأخيرة التى تشبه  
من المحتضر إيماضته الخمود !

ذل ، وتوجع ، وتميع ، وتساييل ، وتزاييل ، واسترخاء لا يليق  
بامرأة فضلا عن صدوره من الرجال !

ومن العجب العجيب ، أنك لا تجد أثراً مطلقاً لهذا التخنيث فى  
غناء مغنياتنا ، وأغنى مغنيات الطبقة الأولى ، على وجه خاص ، فإن  
غناءهن تشيع فيه القوة والرجولة ، اللهم إلا ما يستكرهن عليه  
بعض السادة الملحنين ! أما التميع والتزاييل ، فأكثر ما تجده الآن  
فى أغاني الرجال . ومن أعجب العجب أن يكون صوت المغنى ،



بطبيعته قوياً شديداً الأسر ، فيأبى هو إلا أن يتكلف تطريته وإلانتة ،  
 يجبس جوهره فى الحلق ، وصوغ صوت له من سقف الحنك . ولا يذهب  
 عنك أن الأصوات مما يمكن أن يصنع ويصاغ . وكذلك يتهياً  
 للمغنى أن يلين ويسترخى ويسيل . وإننى أؤكد لك ، يا سيدى  
 القارى ، أن أكثر من تسمع الآن ، من هذا الضرب من المغنين ،  
 إنما يتنغمون بأصوات مستعارة ، لا بالأصوات الطبيعية التى تجرى  
 فى الحلق !

وأرجوك ، ألا تعجل بلوم محطة الاذاعة ، ولا بلوم هؤلاء المغنين ؛  
 فهم إنما يواتون نزوة تعتلج فى الصدور فى هذه السنين ، مع الأسف  
 الشديد ، ولست أكتمك أننى ، من بضعة أسابيع ، سمعت نشيداً  
 حماسياً ، جعل رئيس الجماعة يتكسر فى إنشاده ، ويتزائل فى إلقائه ،  
 ويلين من صوته ، ما أسعدته القدرة على التلين ، حتى لقد ظننت  
 فى أول الأمر أن هذا النشيد « الحماسى » إنما يغنى لحث الجند على  
 الفرار ، لا لحثهم على الإقدام ، لولا ما فطنت إليه أخيراً من أنه  
 لا يصلح لهذا أيضاً ، لأنه يرخى الجوانب ويخذل الشوق ، وهيهات  
 لمنخذل الساق الفرار ! وكل هذا إنما يتكلفه المغنى مطاوعة لذلك  
 الطائف الكريم .

وبعد ، فإذا كان هذا سائغاً فيما خلا من الزمن ، وهو غير سائغ  
 فى أمة من الأمم ، فى أى زمن من الأزمان ، فانه على كل حال غير  
 سائغ فى هذا الوقت الذى نستنفر فيه الشباب لحمل السلاح .  
 ليس سائغاً ألبتة فى هذا الوقت الذى ندعو فيه الأمة شبيهاً

وشبابها ، رجالها ونساءها وأطفالها إلى الحياة العسكرية التي لا تعرف ترفاً ولا ليناً ، حتى تستطيع أن تلقى الشدائد ، مهما يكن لونها ، بالصبر والقوة والعزم الحديد .

وأخيراً ، يظهر أن أولياء الغناء في مصر ، تفتنوا إلى أن هذا ، ولكن في الأناشيد الحماسية فحسب ، أمر سخي فمليخ . فماذا صنعوا ، يارعاك الله ، ليخرجوا أناشيد ترح النفوس رجاً ، وتستحمس الشباب أيما استحماس . ولا تذرفي البلاد كلها فتي ولا شاباً ، ولا كهلاً ولا شيخاً إلا قذفت به إلى الميدان ، ليروى غلته إلى الضرب والطعان . ما يبالي أن يقع من الموت الزؤام ، أو أين يقع من الموت الزؤام ! أتدري ماذا صنعوا في سبيل إدراك هذا المطالب الجسام ؟ لقد شمروا عن سواعدهم ، وشدوا متونهم ، وقووا عزائمهم ، وحدوا أنيابهم رأيت الليث وقد تهباً للوثاب ، أو « آخرنبق لينباع » كما يقول أئمة اللغويين ، وأطلقوا الحناجر بأصوات ترعب سكان المريخ ، لو كان في المريخ سكان !

وليت لي حظاً من البلاغة يهبي لي أن أصف لك بعض هذه الأناشيد الحماسية ! ولكنني عاجز أبلغ العجز عن أن أفعل . وكل ما أستطيع أن أصورها به لنفسى أن أذكر أيام كنا أطفالاً ، وكانت العجائز يسلمن عنا بفنون الأحاديث ( الحواديت ) ، حتى إذا انتهين إلى « أم الغولة » ونهوضها لافتراس العابر المسكين في جوف العلاة ، جوفن أصواتهن أشد التجويف ، وفخمن لفظهن أعظم التفخيم ، وقلن يحاكين زمزمتها ساعة قرمها واقتراسها : « هم أكلك منين ؟ »



وأرجو أن أكون بهذه الصورة قد أجدت التعبير عن أكثر هذه  
الأناشيد .

وصدقوني ، يا سادتي القراء ، إذا قلت لكم إن بعض هذه  
الأناشيد ، قد ألقى ذات يوم وأنا جالس ، وولدى الصغير بين يدي ،  
وهو الآن في طريقه إلى الثانية عشرة ، حتى إذا فرغ المنشدون من  
نشيدهم الحماسي أقبل على وقال : « يعنى يا بابا متحمثناث » ، وفي سينه  
وشينه لشغة . فأجبت من فوري : « الحق علينا يا ابني اللي متحمسناش .  
يا لله بنا نتوكل على الله ونتحمس ! »  
ما هذا أيها الأخوان الملحنون ، وما هذا أيها الأخوان المنشدون ؟  
وبه أبو الشاعر يقول :

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الابل  
وما هكذا يكون الاستحساس ، ولا استنفار الشباب للقتال ، بل  
أنه لا شبه بما كان يدخل به الذعر على قلوب الأطفال في سالف  
الأجيال .

وبعد ، فليست البلاغة مقصورة على فن الكلام ، بل إن لكل  
فن جميل بلاغة ، فالتصوير بلاغة ، وللموسيقى كذلك بلاغة .  
وهكذا . فإذا خلا الفن من هذه البلاغة ، خرج سميحاً مؤذياً ،  
أو سخيلاً بارداً ، كما هو الشأن في الكلام الفسل الركيك ، الضعيف  
التأليف ، سواء بسواء .

وأنت بعد ، خبير بأن البلاغة قوامها الذوق ورعاية المقام .  
وهنا قد يقول قائل : إذا جاز لك أن تنكر من الملحنين تلك الأناشيد  
الحماسية التي يشيع فيها الدين والاسترخاء ، فكيف لك بأفكار هذه  
الأناشيد التي وصفتها بالقوة فيما تقدم من الكلام ؟  
والواقع أن الأناشيد الحماسية كما تحتاج في لفظها إلى الجزالة ،  
تحتاج في نظمها إلى المتانة ، وتحتاج أخيراً في تلحينها إلى القوة .  
نعم تحتاج إلى القوة القوية ، فذلك هو الأشبه بأيام البأس ، والدعوة  
إلى ملاقاتة الأهوال . ولكن لعله ذهب عن ذلك القائل إن العنف  
لم يكن على الدوام دليلاً على الشدة ، ولا كان الصراخ عنواناً لقوة  
الأقوياء ! بل لقد يدل هذا وهذا على الضعف والخور في كثير من  
الأحيان . وإن من يظن أن المعنى الشديد لا يؤدي إلا باللفظ الصاحب  
العنيف ، وإن من يحسب أن الموسيقى الحماسية لا تصور إلا في التلحين  
الصاحب العنيف ، فهو واقع في خطأ عظيم ولأضرب لناشئة المتأدبين  
في هذا الباب مثلاً من أبلغ الأمثال : كلمة هادئة رقيقة وادعة ، قالها  
رجل هادئ رقيق وادع . ولعله لم يبرعه في هذه الخلال أحد بعد  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا صح أن هذا الرجل كان ممن  
شك السل صدورهم ، فقد مر مبلغ حظ هذه الكلمة من الظرف والرقّة  
واللين ، فليس أرق ولا ألين ولا أخف على الأذن من حديث مسلول  
ومع هذا لو تفتنت ، فانك واجد لهذه الكلمة من الترجمة عن القوة  
والسطوة والسلطان ما لا يكاد يدانيها في ذلك كلام .  
وجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، يزيد بن سفيان على جيش



إلى الشام ، وخرج يشيعه راجلاً ، فتعاضم الأمر يزيد فقال : يا أمير المؤمنين ، إما أن تركب وإما أن أنزل . فقال له الصديق : ما أنا براكب وما أنت بنازل ! ثم أنشأ يقول : إن هي إلا خطي أحسبها لله وفي الله الخ . . .

لعلك استشعرت ما وراء هذه الكلمة الرقيقة الوداعة من سطوة وسلطان ، فاذا تعاضمك ، مع هذا ، أنها خلت حتى من صيغة الأمر والنهي ، فاعلم أن من أسباب قوتها وبأسها إذا لم يكن السبب الوحيد في قوتها وبأسها ، هو خلوها من ذلك ، وكذلك يخبر قائده إخباراً بأن إرادته قد مضت بما سيكون ، فليس له بتغيير الأمر يدان ! ونعود إلى القول بأن التدليل على القوة لا يحتاج ألبتة إلى عنف ، ولا إلى صراخ واصطخاب . فمن لنا بذلك الملحن البليغ الذي يصوغ هذه الأناشيد في قوة تتنزه عن مثل هذا الصراخ الحقيقي بتخويف الصبيان ؟

من لنا بذلك الملحن البليغ الذي يصوغ لنا هذه الأناشيد في حن قوى يشيع فيه الطرب ، وأقول الطرب ، لأنه شرط أساسي في مثل هذه الأناشيد . فالطرب مما يثير الأريحية ويدعو إلى الأقدام . ومما يحسن ذكره في هذا المقام أن القوة والطرب ، كانا إلى وقت قريب ، هما الطابع المصري لما يصاغ من التلاحين في هذه البلاد ، كشأن التلاحين الشامية والتركية جميعاً ! وأخيراً فلست أشك في وجود الملحنين القادرين على هذا ، ولكن يظهر أنه قد جرفهم هم الآخريين هذا التيار مع الأسف العظيم .

## في السياحة

أذاع حضرة صاحب العزة أحمد صديق بك مدير مصلحة السياحة في مؤخرات الشهر الماضي حديثاً قيماً ، رمى فيه إلى حضن المصريين على اتخاذ المصايف المصرية ، وإيثار بلادهم بالأموال الجليلة التي ينفقونها في البلاد الأجنبية في كل عام ، وقد قدر هذه الأموال بأربعة ملايين من الجنيهات !

وقد عرض في حديثه لمنشأ هذه البدعة ، بدعة خروج المصريين إلى البلاد الأجنبية لسلخ ما يتهبأ لكل منهم سلخه من أيام الصيف ، وعلى وجه الخصوص في أوروبا ، ورد هذه البدعة التي استحالت عادة إلى أن مصر لما كانت داخلة في ملك الدولة العثمانية ، كان من المتعين على الحكام وأصحاب الأخطار في البلاد أن ينتجعوا ، الفينة بعد الفينة ، مشوى الخلافة للأغراض المختلفة . وإذ كان جو القسطنطينية لا يوائمهم في الشتاء ، فكان من المعقول أن يجرروا فصل الصيف لهذه الهجرة ، فجوالآستانة فيه جميل ، وهوأؤها عليل . وجرى من دون هؤلاء على سنة هؤلاء بحكم المحاكاة والتقليد . ثم تحولت دفعة المهاجرين شيئاً فشيئاً إلى بلاد الغرب ، حتى بلغت عدتهم عشرات الألوف في كل عام ، وأصبح ما ينفقونه يعد بالملايين ،



وما أحوج بلادنا إلى هذه الأموال ، وخاصة في هذه السنين !  
ولقد حمل الأستاذ صديق بك حملة صادقة على أولئك الذين  
يهجرون بلادهم في مطلع كل صيف ، شادين الرحال إلى أوربا في غير  
حاجة تدعوهم إلى ذلك من طلب علم أو استقصاء بحث ، أو تحريك  
تجارة ، أو إنماء صناعة ؛ أو غير ذلك مما يخرج الناس من ديارهم ،  
ويضرب بهم في غيرها من بلاد الله .

وإننى أؤيد حضرته بكل ما أمك من يقين ، وأؤكد أننا إذا  
استثنينا طلاب العلوم والفنون وبعض الأساتذة والأطباء ، لا نصيب  
أكثر من واحد في كل مائة من هؤلاء الذين يطلبون أوربا في كل عام ،  
وهذا على أسخى تقدير . أقول لا نصيب أكثر من واحد في المائة  
يضطره أى أمر من أمور الدنيا أو الآخرة إلى تلك البدعة التى تستهلك  
هذه الأموال في كل عام .

أربعون ألف مصرى يطلب أكثرهم أوربا في صيف كل عام .  
إذا فتعالوا نتحاسب ، ولنكن في حسابنا حق صرحاء وحق صادقين .  
كم مصرياً في العام يمشون إلى أوربا ليستقصوا بحثاً يفتح في العلم  
أو الفن فتحاً ، وينقض بعض القواعد المسلمة فيهما نقضاً ، ويطيرهم  
العلماء في شرق الأرض وغربها كل مطير ! العفو !

ثم كم مصرياً من هؤلاء والأربعين ألفاً يطلبون أوربا ليفتحوا  
بين يدي التجارة المصرية أسواق الغرب ، فلا تلبث حتى تغزوها  
غزواً ، وتدفع ما سواها من التجارات دفعاً ؟ العفو !

ثم كم مصرياً بين هؤلاء الأربعين ألفاً من يشخص إلى الغرب

لينتقل عنه إلا بلاده أدق الصناعات وأفخمها بحيث لا تستغنى بصنع أيديها عما يرد إليها من الغرب والشرق فحسب ، بل لتغمر بهذه الصناعة الأسواق في غيرها من البلدان ؟ العفو أيضاً !  
ثم كم مصرياً في أولئك الأربعين ألفاً من تعاصت علته على جمهرة الأطباء في مصر ، وطنيين وأجانب ، حتى حلفت الطبيعة بكل مؤثمة من الأيمان ، أن هذه العلة لا برد لها إلا في فيشى أو اكس ليبان ؟

حقاً ، لقد نجد بين هذه الجموع الكثيفة التي تتدفق على أوروبا في كل عام من تبعثه تجارته ، ومن تستدرجه الرغبة إلى تحسين صناعته ، ومن قد أثقلته العلة حتى تحير فيها طب الأطباء في هذه البلاد ، فلم يجدوا بداً من الإشارة على العليل بالشخص إلى الغرب ، حيث الطبيب الاختصاصى العالمى ، أو حيث ينبوع الذى عقد الشفاء بمائه ، ونحو ذلك . ولكن قل لى بعيشك : كم عدة جميع هؤلاء وأولئك من النازحين إلى الغرب في كل عام ؟ عشرة ! عشرون ! ثلاثون ! أربعون ! أى بحساب واحد في الألف لا واحد في المائة ، على ما قدرنا ، أسخياء ، في بعض هذا المقال !

أستغفر الله ! لقد فاتنى أن أقدم السبب الرئيسى لهجرة هذا القدر الضخم من المصريين إلى الغرب في كل عام . وهذا السبب تظالنا به الصحف السيارة في كل عام . وهل يقع لك عدد من جريدة في مصر طوال أشهر الصيف إلا قرأت فيه : « يبحر ( فلان ) إلى أوروبا



تبديلاً للهواء ، أو ترويحاً ، للنفس من عناء الأعمال . أو نحو ذلك مما يدخل في باب الترفيه والاستجمام !

وليت شعري هل تستحيل بلادنا في الصيف فرناً تشوى فيه الوجوه شيئاً ، وتفري الجنوب فرياً ؟ أليس في بلادنا الطويلة جداً والتي يسلكها النيل من أولها لآخرها ، والتي تطل على بحرين لا بحر واحد — أليس في هذه البلاد كلها متنفس في الصيف ، ولا متفرج من وقدة حره ، ومنبذ عن أذاه وضره ؟ وأخيراً ، أليس مصايغنا من وسائل التسلية واللهو ما يريح النفس ، ويهيئ الاستجمام ؟ بلى ! إن فيها هذا كله ، وفيها غيره من مطالب رواد الغرب في كل عام ! إذاً فما سر هذا التجنى والبطر الجري على البلاد وعلى مصايف البلاد ؟

ودعني أزعجك ، أيها القاعد ، أن الكثرة الكثيرة من هؤلاء المهاجرين لا يطيب لهم العيش في هذه الرحلات الغربية كما تتصور أنت ، وكما يصورون هم لك . بل إنى لأتقدم ، غير متزيد ولا غال ، فأزعم لك أن كثيراً منهم لا يجدون فيها إلا ضيقاً ورهقاً ، فإن في الغربية أولاً لضيقاً ، وإن في تغيير أسباب المعيشة فجأة لعنتاً ورهقاً . وناهيك بازدياد أطعمة لم تألفها ، والاضطراب في بيئات لم تعرفها ، والتزام عادات لا عهد لك بها ، وأخذك النفس بأمور لم يسبق لك علاجها ولا التمرين فيها ، وكيف بالمرء مع هذا إذا كان لا يحذق لغة القوم الذين يعيش فيهم ويضطرب بينهم ؟

وهذا إلى الهمة بترك الوطن والبعد عن الأهل والولد وطول شغل

النفوس باهمال العمل ، إذا كان المهاجر من أصحاب العمل ، وهذا وهذا إلى ما يجشم هذه الهجرة من ألوان النفقات ؛ وما تستخرج من جليل الأموال التي قد يستعان عليها بالاستدانة ، أو الانطواء في سبيلها على الضيق والعسر في سائر شهور العام !

ولقد يسقط الكثير من هؤلاء إلى باريس ، فباريس قبلة الكثرة من هؤلاء المهاجرين ، فيشوى في أحد فنادقها ، لا يغادره إلا إلى مقهى ، أو ملعب من الملاعب ، أو مباءة من مباءات العبث ، ويظل مضطربه بين هذه المواطن الثلاثة أو الأربعة طول مدة الإقامة هناك ، حتى يأذن الله في عودته ؛ ولقد يوالى الهجرة إلى باريس عشرين عاماً وهذا شأنه ، ما يرى من باريس غير ما رأى ، ولا يعرف عنها أكثر مما عرف . الفندق ، والمقهى ، والملعب ، وما عسى أن تنزلق إليه رجله من مباءات العبث . وليس وراء عبادان بلد !

وبعد ، فإذا طلبت حقيقة السبب في هجرة كثرة هؤلاء المهاجرين إلى الغرب ، على ما فيها من كثرة النفقة ، وعظم المشقة ، واحتمال ما وصفت لك من فنون الضيق والعنت ، فهو لا يعدو الرغبة في التكاثر والظهور بالأبهة والفضخخة وتقليد المترفين من أصحاب الثراء . فالشخص إلى أوروبا أصبح عند هؤلاء بمثابة الرتب وألقاب الشرف ، ولولا بقية من حياء لطبع هؤلاء على رقاغ الزيارة :



فصله الفسوفى  
سافر إلى أوروبا

على أن فى ترديد اسم أوروبا كلما جلسوا إلى الناس ، ولما سافرت إلى أوروبا ، وسنة ما كنا فى أوروبا ، وبيننا كنا فى باريس الخ . . . مما تعي به الطاقة ، ما يغنى فى التعريف عن ألف بطاقة وبطاقة ! على أن مما نحمد الله عليه أنه على تضاعف عدد الذين يخرجون عن البلاد وازدياد عدتهم سنة بعد سنة ، فقد قل ، ولو فى النسبة ، عدد الحكّائين منهم .

وللحكّائين من هؤلاء فى الجيل الماضى عما رأوا فى رحلاتهم إلى الآستانة ولبنان حديث يروق ويشوق . ولعلنا نطالع القراء بنماذج منه ، فهو حقيق بأن يسلى عنهم بعض التسلية ، ويرفده عليهم فى وقدة الصيف بعض الترفيه .

وإلى الملتقى إن شاء الله .

## الحكّاءون

١

رجوت في غاية مقال « في السياحة » أن ألم بحديث الحكّائين  
من كانوا يطلبون البلاد الأجنبية إذا كان الصيف . ولعلك تذكر  
أننى زعمت في ذلك المقال أن غريزة المحاكاة والتقليد كان لها في تلك  
البدعة الأثر البعيد .

كان الكبراء من رجال الحكم ومن على شاكلتهم يشدون الرحال  
إلى الآستانة في مطالع الصيف وعلى رأسهم ولى الأمر نفسه . وجعلت  
العدوى تسرى حتى أصلب أهل الطبقة الوسطى فمن دونهم . فمن عز  
عليه السفر إلى الآستانة اكتفى بالشخوص إلى الشام . وكانت كلمة الشام  
تطلق في مصر على ما ندعوه الآن سوريا ، ولبنان ، وفلسطين الخ . . .  
وكيفما كانت الحال ، فإن السائح إذا عاد إلى مصر ، جلس  
في داره أياماً للهناء ، وربما سبق أهله فزينوا باطن الدار وظاهرها  
فرحاً بسلامة القدوم ، وترى الناس يقبلون عليه أفواجا ، يبدون له  
فرحهم بعودته سالماً ، وغبطتهم له ، بظهر الغيب ، على ما رأى  
وما شهد . ولا يلبثهم هو حتى يسألوه عن شئ من ذلك ، بل إنه  
ليعاجلهم بالحديث الطويل . وكلما أقبل فوج من الناس أعاد الحديث



وكرره ، وهكذا حتى تنقضى أيام الهناء ، إذ يخرج للقاء الناس فلا يضمه بهم مجلس ، بل لا يكاد يلوح له اثنان يتحاوران في شأن لهما حتى يفسح لنفسه بينهما مجلساً ، ثم طفق يتحدث فيما رأى في رحلته وما شهد ، وما أكل وما شرب . ولقد تكون رحلته من يوم تحمله إلى يوم مهبطه مصر قد استهلكت ثلاثين يوماً فقط ، ولكنه مستهلك في الحديث عنها ثلاثين عاماً !

ولقد ضاق بهذا جماعة من أهل الأدب والظرف ، وبرموا به برماً شديداً . وكان على رأسهم المرحومان السيد محمد المويلحي بك ، والسيد محمد البابلي بك ، وغيرهما ممن لا يزالون في الحياة ، وصل الله في أعمارهم ، وأسبغ عليهم العافية ؛ فقعده والجماعة الحكّائين كل مرصد . وكما تحركت في مجالسهم شفتا حكاء ، راحوا يبوخونه ويتلقونه بالنكتة الكاوية من جميع أقطاره ، حتى يعصروه عصراً ، وما زالوا يجمهرة الحكّائين كذلك حتى أزعجهم عن هذه الخلة ، وعقدوا ألسنتهم عن الخوض في هذا الحديث السمج المعاد ! فالفضل في كف هذا البلاء عن المجالس لهم ، جزاهم الله خير الجزاء !

والعجيب أن الحكاء من هؤلاء سواء تحدث عن اصطنبول أو الشام فإنه قل أن يلم في حديثه الطويل العريض بالطبيعة ، وما آثرت تلك البلاد من فتنة وجمال !

وقبل كل شيء ينبغى أن نفرق بين حكائي الشام وحكائي اصطنبول ، فالحديث عن كل منهما مختلف عن الآخر أشد الاختلاف . وسترى هذا من عرض الكلام .

وبعد ، فقد لا يكون من أخلاق الحكاه الكذب ، وقد لا يكون من خلاله التزويد . فاذا آنست من حديثه شيئاً من التزويد أو الغلو الذى يذبو على كل تقدير ، فاعذره فما كان الرجل ليضرب فى الأرض ، ولا ليعانى من ألوان المشقات ما يعانى ، ولا ليبذل فى وجوه النفقات ما يبذل ، ولا ليحتمل من آلام الغربة والغيبة عن الأهل والولد ما يحتمل ، كل هذا ليقول لك : إنه مشى على أرض كالأرض التى تمشى عليها ، أو رأى السماء كالسما التى تنظر كل يوم إليها ، أو أكل عنباً كالذى تأكله ، أو شرب ماء كالماء الذى تشربه الخ . . .

اللهم إن هذا الرحالة الجواد بالمال والنفس إذا دعت الحال فى سبيل الترف وتلذيد النفس بأسباب الرفاهية ، ليرى نفسه ملزماً بأن يأتيك بالجديد ، ويظالعك بالطريف ، بل بما يذهلك ويدخل عليك الدهش والعجب .

ولنبداً بحديث رواد الشام ، وما أصابوا فى بلاد الشام : أما العنب فالعنب لا تقل فى حجمها عن بلحة الزغالول . ولهذا ترى القطف منه أكبر وأضخم من عذق النخل . فاذا أنت قشرتها وعرضتها للهواء استحالت قمعاً من السكر لا يميز بينهما إلا البذر ، فاذا لم يكن ثم بذر ، فالتمييز ضرب من المحال !

وهناك أنهار وجداول ، ماؤها أحلى من العسل وأبرد من الثلج ، إلى آخر ما انتهى إلينا من صفة الكوثر فى الجنة . وهناك التفاح وما أدراك بالتفاح ؟ لقد تلقى بالتفاحة فى النهر أو الجدول ، وسرعان ما تتناولها مقشرة وقد شطرها لك الماء أربعة شطور ، فاذا



قدفتها في فمك استحالت شراباً ولكنه زلال ، وخمراً ولكنه حلال !  
 وأما الخوخ ، فلا يقل في الحجم عن ثمر الجوز الهندي . وهل  
 تراك تحرك فكا لتمضغه مضمغاً ؟ بل إنك لتترشفه ترشفاً وتعب من  
 غسله عباً ! وأما البطيخ فمما تنوء واحدهته بالعبقريين الشداد !

وأما المشمش ، وأما التين ، وأما الكمثرى ، وأما وأما مما تخرج  
 الأرض وما تعالج الأيدي من ألوان الفطائر والحلوى ، فعد ذلك  
 مما يتجاوز الجهد ولا يتسع له نطاق الكلام !

ولقد زعمت لك ، في بعض هذا المقال ، أن الحكاء من هؤلاء  
 قل أن يلم في حديثه الطويل العريض بالطبيعة . والآن ذكرت ،  
 وأستغفر الله مما عراني من النسيان ، فانهم يعرضون للطبيعة ، وفضل  
 الطبيعة . فان أحدهم ليصف لك ما كان يصيب في وجبته من لحم  
 الضأن والطيور والسماك والخضر والحلوى والنقل والفاكهة الخ . . . ،  
 حتى ليخيّل إليك أنه قام وحده بالتهام مطعم كامل ، أو أنه طهى له  
 سوق خضار تزداد عليه صواني الكنافة والبسبوسة والهريسة ، وما شئت  
 أو لم تشأ من الفطائر والحلوى ، وإياك أن تنسى صينية « الكبة  
 الشامي » التي تقرب إليك في صدر الطعام !

وبعد أن يعرض على سمعك لا على عينك ولا على شفئك هذه  
 القوائم أو هذه « المونيئات » menus تراه يحلف لك بالمؤثمات من  
 الأيمان ، أنه لا يكاد يمضي نصف ساعة على كل هذا الذي خضم  
 وقضم ، وافترس والتهم ، حتى يحس إلحاح الجوع ، بل حتى يحس أن  
 معدته تنزى في جوفه تنزياً بعد أن اعتصرها شدة التحلب على الطعام !

ولعمري ، هل كان هذا كله إلا بفضل جودة الهواء ؟ أعود  
فأستغفر الله ! فلقد كان هؤلاء الحكاهون يذكرون الطبيعة ، بل لقد  
كانوا يشيدون بفضل الطبيعة ، ولكن في العون على سرعة هضم  
الطعام ! يا سبحان الله ! وهل ثمة شيء وراء الطعام ؟

وبعد ، فلقد خرج لنا مما مضى من القول أولاً : أن بدعة قضاء  
جمهرة المصريين الصيف أو فترة من الصيف ، إنما كان منجمها شهوة  
الحاكة والتقليد ، اللذين ما برحا شائعين في خلالنا ، مع الأسف  
الشديد ، مهما عادا بالضرر العظيم . وثانياً : شدة الرغبة في الأطراف  
والأغراب بالتزويد والافراط في المبالغات ، إظهاراً للاستئثار ، دون  
القاعدين ، بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب  
إنسان ! وثالثاً : إفراد الطعام وكل ما يتصل بشهوة البطن ،  
واختصاصها بالوصف بين كل ما يرى المرء وما يصيب من السياحة  
في بلاد الشام . ولو قد جعلوا شطراً من حديثهم لوصف ما حبا الله  
تلك البلاد من سحر وفتنة ، أو لما وثقوا من حبال المودة بيننا وبين  
جيرتنا الكرام ، أو لذكر ما يلقي القوم من عنت ورهق وأذى تحت  
الحكم التركي في تلك الأيام ، لما كان لحديث الحكاهين شيء من تلك  
الفسولة والابرام !

ولقد رأيت أن حديث الحكاهين من رواد الشام قد استغرق  
المساحة المقسومة للمقال ، فلترجى حديث رواد اصطنبول إلى وقت  
آخر ، أرجو أن يكون قريباً إن شاء الله .





## الحكاهون

٢

### اصطمبول - ١

وترى أنني خالفت البكتيين إلى رسمها بالصاد لا بالسين ؛  
وذلك لأجاري منطقي الناس كافة ، لثقل النطق بالطاء بعد السين  
الساكنة . ولقد يكتبونها في بعض الأحيان « اسلامبول » فاذا نسبوا  
إليها ( في الكتابة لا في النطق ) كتبوا « الاسلامبولي » ، على أنهم  
إذا تكلموا قالوا : « رأيت سي مجد الاصطمبولي » ، وسافر سي حسين  
الاصطمبلي الخ . . .

ومن أسماء هذا البلد القصطنطينية ، والآستانة ، وفروق ( وهذه  
لا أعرفها إلا من شعر شوقي بك عليه رحمة الله ) ؛ ودار السعادة على  
ألسن العرب و « دَرَّ سَعَادَتٌ » على ألسن الترك والمتركيين . وحقيق  
بمشوى الخلافة الاسلامية أن يكون كل هذه الأسماء . ولا تنس مشوى  
الخلافة الاسلامية في عهد العباسيين ، فلقد كان من أسمائها : بغداد ،  
بغداد ، بغداد ، بغداد ، بغدان ، مدينة المنصور ، مدينة السلام الخ . . .  
ولقد قال المتقدمون : إن كثرة الأسماء دليل على شرف المسمى .



وبعد ، فلقد علمت أن كثيراً من المصريين كانوا يهجون في مطالع الصيف من كل عام إلى دار الخلافة ، ثم يعودون إذا عادوا ، فيحكون ، شأن رصفائهم من رواد بلاد الشام .

على أن الحديث ، كما قلت لك في المقال السابق ، مختلف بين الفريقين ، جد الاختلاف ؛ فانك قل أن تسمع من رواد اصطمبول حديث « البقلاوة » ، أو « البلنج ضلمة » أو « الامام بيلدى » ، وأرجو أن تفخم اللام في هذه بكل ما تستطيع من التفخيم .

إذا لم تكن جمهرة أحاديث هؤلاء مما تتحلب له الشفاه ، ويتنزى على ذكره عصير المعد . بل لقد كان حديث « حكائهم » في السياسة العليا ، وفي شوكة السلطان ، أو الخليفة ، أو « الياديشاه » وما له من قصور ، تزخر بالعين الحور ، وما تخرج يلدز للمقربين من موائد تعد في كل يوم بالآلاف ، تجمع كل واحدة منها عشرات الصحف ، الخ ... أما جنود السلطان وفيالقه ، وجيوشه وكتائبه ، فمما « لو رمى بواحدة منها مناكث الأرض لم تثبت على قدم ! »

وناهيك بما أصاب هؤلاء الرواد من متع دونها ما وصف به نعيم أهل الجنة . وناهيك بما وقفوا عليه من أسرار السياسة ، سياسة الباب العالى التى سيدين لها العالم ، وتحشر بين يديها دول الأرض فى قريب من الزمان !

وقبل أن أعرض عليك نماذج من أحاديث أولئك الحكائين ، أرى لزاماً أن أقرر أن عيش الحر فى تلك البلاد ، فى عهد السلطان عبد الحميد ، لم يكن إليه سبيل بحال من الأحوال . وبحسب المرء

أن يرفع بصره إلى قصر من القصور السلطانية ، أو يحرك لسانه بكلمة واحدة في السياسة ، أو يذكر الجيش ، ولو بالخير ، أو ينطق باسم عبد الحميد يريد به أى إنسان كان يحسبه شئ من هذا ونحوه لتخطفه « الخفية » (١) خطف العقبان . وسرعان ما تلقى به في مطبق (٢) يظل يتخلج في ظلامه الأيام الطوال ، حتى يأذن الله بطلعة المستنطق (٣) فإذا قضى أياماً آخر بين السين والحيم وقف المسكين على مفترق الخطوط ، فاما إطلاق ، وهذا هو الفوز الأكبر ، وإما أمر بترك البلاد إذا لم يكن من أهلها ، وهذا هو الفوز نمرة ٢ ، وإما ترك له في السجن ونسيان ، حتى يأذن الله بالفرج بعد عام أو أعوام ، وإما نفى في بعض قواصي الولايات ، وإما إلقاء في البسفور ، حيث يفرح له في بطون الحيتان !

والعجب أن عثمانياً لم تطل خلافته كما طالت خلافة عبد الحميد . والأعجب أن استبداداً وعسفاً وتخريباً لم يقس في تلك المملكة كما قسا الاستبداد والعسف والتخريب في عهد عبد الحميد . ولم يخرج عنها من ولاياتها ولم يقطع من أملاكه كما خرج واقتطع في عهد عبد الحميد . وأعجب الأعجب ، بعد هذا كله أن جمهرة المصريين لم يجبوا أحداً

(١) البوليس السرى وكانوا يدعون رئيسهم « سرخفيت » ، ولما أعلنت الحرية في سنة ١٩٠٨ مزق الأهلون فيهيم باشا « السرخفيت » تمزيقاً ، وألقوا بلحمه مزعاً إلى الكلاب .

(٢) السجن تحت الأرض .

(٣) عند الاتراك : المحقق



كما أحبوا عبد الحميد ، ولم يدينوا بالولاء الحاد لانسان كما دانوا  
لعبد الحميد ، ولولا بقية تمسكهم من دين لعبدوه مع الله ، أو لعبدوه  
من دون الله ، والعياذ بالله ، وأستغفر الله العظيم !

وذلك الحب المتمكن من النفوس ، والمتغلغل فى القلوب يرجع  
إلى أسباب لا محل لبسطها فى هذا المقال . وكيفما كان الأمر ، فإن  
السلطان عبد الحميد لقد بلغ من نفوس المصريين على الخصوص ،  
موضع التقديس والتنزيه ، حتى إذا لاح فى خاطر المرء لائح من  
الافكار لبعض حكمه وتصريفه ، أسرع فرده واستعاذ بالله من  
الشيطان الرجيم !

ولم يكن أعوان السلطان على إدارة الشؤون وتصريف الأمور  
هم الوكلاء ( الوزراء ) ولا من دونهم من يشغلون عليا المناصب  
فى الدولة . بل لقد كان الرأى قسمة بين السيد أبى الهدى الصيادى  
( من مشايخ الطرق الصوفية ) ، والشيوخ ظافر ( شرحه ) وعزت باشا  
العابد . ولا أدرى ماذا كان منصبه ، ولا تنس نفوذ الباش صاحب  
( الباش أغا ) أو كبير الحصيان فى قصر السلطان . أما آخر من  
يتحدث على أى أمر من الأمور ، أو يرجع إلى رأيه فى شأن من الشؤون  
فهو صاحب الفخامة الصدر الأعظم . وكان يتقدم بحكم البروتوكول  
على خديوى مصر فى تلك الأيام . ولهذا ظل المرحوم خليل رفعت باشا  
صدراً أعظم فى أكثر عهد السلطان عبد الحميد ، لأنه لم ينطق فى  
الشؤون العامة بكلمة واحدة !

وعلى الجملة ، فلقد أثمر هذا النظام كل ثمراته من إشاعة الدس

والكيد ، والسعاية والوقيعه ، والبطش والتتكيل ، وإهلاك أصحاب الكفريات أو إبعادهم ، وتقريب الجواسيس (١) ، وإطلاق أيديهم في أرزاق الناس وأعمارهم . وأضحت الرشوة هي السبيل إلى نيل الحقوق وإلى غصب الحقوق على السواء . وتبع ذلك ما ينبغي أن يتبعه من جذب العقول ، وفقر الجيوب ، وتقلص الأفكار ، وضمور الحريات ؛ وأسرع الفساد إلى جميع المرافق ، ولحق الخراب عامة البلاد ، ولم يبق عامراً في الدولة كلها إلا « الجيب الهايوني » الذي تعصر له الرعية عصراً كل صباح ومساء ، في ضرائب لا يتناولها الحصر ولا يدركها الاحصاء !

ولقد جرى الولاة في ولاياتهم على هذه الأساليب ، وكذلك المتصرفون في متصرفياتهم ، والسناجق في سناجقهم ، وسائر العمال في أعمالهم . وكيف لهم بالعيش إذا كانت وظائفهم وأرزاق من قبلهم من الجند تحبس عنهم الأشهر بل السنين ؟

وولى هذا ما يجب أن يليه من ضعف الدولة ووهنها ، وعجزها عن حماية أرضها ، وتمكين سلطانها في ملكها ، فجعلت ولايتها تنسلخ منها واحدة في إثر واحدة ، حتى بلغت عدة الولايات التي خرجت عن حكمها في عهد السلطان عبد الحميد وحده قرابة الثلاثين ! ومع هذا وهذا وذلك يأبى الحكاهون إلا أن يشيدوا في المجالس

(١) قدم السيد جمال الدين الأفغاني من الآستانة ، فقبل له كيف رايت ؟ قال : رايت نصف القوم جاسوساً على النصف الآخر .



بما أصابوا في دار السعادة من المتاع وما تقلبت فيه أعطافهم من  
النعيم ، وما شهدوا من مجد الدولة وسلطانها ، وما اطلعوا عليه من  
أسباب قوتها وبأسها ، وما انتهى إلى علمهم من أسرار سياستها التي  
تعي الأفكار وتعز على الأفهام ، وإن كانت ثمراتها الضخام ستجني  
بعد أعوام أو بعد أيام !

ولقد استهلكت هذه المقدمات التي لا بد منها القدر المقسوم لهذا  
المقال ، فلنرجى عرض نماذج الحكايات الاصططيليين إلى يوم آخر  
إن شاء الله .

## الحكاهون

٣

### اصطمبول - ٢

كان بائع غرابيل يجول في الطريق هاتفاً بغرابيله ، فدعا به رجل واستنزله حمله ، وسأله أن يحل وثاقه ، وينثر الغرابيل بين يديه نثراً ، ففعل الرجل ، وجعل « الزبون » يعجمها واحداً بعد واحد ، ويطيل النظر في تفقدها ، ويكثر من جسها وغمزها ، حتى إذا أتى عليها جميعاً ، عاد إلى تفقدها وجسها وامتحانها ؛ وما زال يفعل ذلك ويكرره حتى استهلك فيه الساعات الطوال ، والرجل ينظر إليه في غيظ وحنق ، لما أضع من وقته وامتهن من سلعته ؛ حتى إذا انتهى اختياره إلى أصلبها خشباً ، وأجودها جلدًا ، وألحمها نسجاً ، وأحكمها شدًا ، قال له : بكم هذا الغربال يا شيخ ؟ فرأى الرجل أن يكافئ كل هذا العناء بالاغلاء في الثمن ، فقال : بخمسة وعشرين قرشاً ! فقال له في دعة وفتور : بثلاثة قروش تعريفة ! فثار ثائر الرجل ، وضرب الأرض باطار الغربال ، فوثب حتى صك ناصيته ، فأعاد الضربة بأشد مما ضرب فصك الغربال ناصيته بأشد مما صك ؛ وما برح الغيظ



يفعل به هذا ، والسابلة يجتمعون حوله من كل مذهب ليطالعوا  
هذا المشهد العجيب ، حتى شدخ الغربال رأسه ، وأسأل دمه ،  
فصاح فيهم : أيها الناس ! أمنتظرون أنتم حتى يقتلني هذا الغربال ؟  
ولا أكتممكم ، يا معشر القراء ، أن هذا القلم كثيراً ما ينشر على  
ويجمع ، وتستصعب على سياسته وضبط عنانه . ولقد أسوءقه في طريق  
فيخالفني إلى غيره . ولقد أرسم للمقال نهجاً محدوداً ، فيأبى إلاتعدى الحد  
والعدول إلى نهج آخر حتى ينتهي في بعض الأحيان إلى الغاية التي يبغيها  
هو ، لا الغاية التي أطلبها أنا ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !  
ومن هذا البلاء الذي امتحنت به من هذا القلم الجامح المتمرد ،  
أننى بدأت مقال الحكاين على أن يجرى كاه لخال أو قصر في فنون  
من التسلية والتندر ، في هذا الحر وهذه الحرب ، خيبة الله عليهما  
جميعاً ، وإن كنت لا أتريد ولا أعدو الصدق أبداً . فاذا هو ينتظر  
لى بشبح عبد الحميد ، وحكم عبد الحميد ، وحكايات من كانوا ينتابون  
الآستانة في عهد عبد الحميد ثم إذا هو يمعن في هذا الطريق إمعاناً  
لم يدخل لى يوم بدأت الحديث في تقدير ولا تصوير !  
والآن كيف الرجوع إلى النهج الذي بدأنا بسلوكه ، وكان ،  
بحمد الله ، بين الحدود واضح الأعلام ؟  
كيف لنا بهذا وقد التوت السبل ، وغشيت السياسة وجه الطريق  
بما هو أحد من الحسك ومن شوك القتاد ؟  
أفترانا نستعدى على جماح هذا القلم جمهرة القراء ، كما استعدى  
النظارة على غرباله صاحب الغرايبيل ؟

أريد مفاكهة وتندراً ، وبأبي علي القلم إلا خوفاً في ظلمات  
عبد الحميد ، وما كان يعاني من ظلمه رواد الأستانة من المصريين  
وغير المصريين ؟

اللهم إنه ليس من الرأي التصدى لكبحه وهو في حمى ثورته ،  
بل الرأي كل الرأي في مجاراته وإلانة قياده ، وإظهار المطاوعة له ،  
حتى تفطر حدته ، ويظامن من جماحه ؛ وحينئذ يتيهأ صرف عنانه  
إلى وضح الطريق . وكذلك نمضى في المقال على اسم الله العلي العظيم .

ولقد حدثتكم في المقال السابق عن بعض ما جرى من الخن على  
دولة الخلافة باستبداد عبد الحميد ، وظلم عبد الحميد ، حتى لقد  
انسلخ عنها في ذلك العهد الأشام قرابة ثلاثين ولاية ، وإن شئت  
قلت ثلاثين مملكة .

وقلت لك إن المصريين لم يحبوا أحداً كما أحبوا عبد الحميد ،  
ولم يدينوا بالولاء لأحد كما دانوا لعبد الحميد ، حتى لقد خالط حبه  
اللحم ولصق بالعظم ، وجرى في أعراقهم مجرى الدم . فلم تجر بسوء  
حكمه على الاسلام محنة ، إلا جعلوها موضع منة ، ولا دب إلى جسم  
الدولة بظلمه فساد إلا أحالوه على صلاح ؛ فاذا غم عليهم الأمر  
ولم يهدم إلى الرأي طول التعسف في التأويل والتعليل ، أحالوا  
الأمر إلى الحكم التي تعلو على أفهام العباد !

وإن من الانصاف أن تقرر أن أشد الناس كانوا استحماساً في  
هذا الباب هم سلالة الترك المتمصرين . وكان زعيم هؤلاء جميعاً



شيخاً واسع الغنى يسكن فى بعض أطراف القاهرة ، ولا أسميه  
ولا أعين مسكنه ، لكيلا أدل عليه . رحمه الله وغفر لنا وله .  
كان هذا الرجل أو هذا الزعيم العظيم ، حين أدركناه ، فى حدود  
السبعين . وكانت داره الواسعة مثابة القصاد ونجعة الرواد . يؤمها  
فى كل ليلة جماعات الظهاء إلى أخبار الباب العالى ، وما عسى أن يكون  
قد أجد لدولة الاسلام من مفاخر ضخام !

فاذا كان عيد الجلوس السلطانى رصعت الدار بمصاييح تخطف  
الأبصار ، ووشيت بأذكى الورود وأنضر الأزهار ، وصدحت الموسيقىات  
بأحلى الأنغام ، وقرب للفقراء أشهى الطعام من لحوم الأنعام ، ووقف  
البك بالباب يستقبل جماعات المهنيين الداعين لجلالة الخليفة بالبقاء على  
السنين حتى يربى عمره على المثين ، وغنى فى الليل أعلام المغنين ، ونثرت  
بدر الدراهم على جماهير المحتشدين ، من المعوزين وغير المعوزين !  
وقلت إنه يقف بالباب فى تلقى الهناء من الوافدين ، وإنه ليكافئ  
هناءهم بالشكر والدعاء ، كما يصنع أى امرئ فى أسباب مسراته  
الخاصة وأمزاحه العائلية . وذلك لما يشعر به ، أو ما يريد أن يشعره  
الناس من أن له سهماً ، ولو ضئيلاً ، من شؤون السلطان أو من  
شؤون الدولة ، يهين له تقبل الهناء ، والأثابة عليه بالشكر والدعاء .  
وكيف لا وقد كثر كل حبه وولائه وإخلاصه على الياديشاه ،  
وهو عند الباب العالى مطلع الرأى ومنتزل السر ، على الرغم من  
بعد الديار ، وشط المزار !

ولا تظن أن هذا الرجل كان فى هذا الباب فذاً منقطع النظير

في فتح داره لجماعات الاصطمباليين ، فلقد كان نظائره كثيرين . وإنما  
أفردناه بالذكر لأنه كان أكبرهم سناً ، وأبعدهم شهرة ، وأوسعهم  
غنى ، وأقدرهم على الوصف وتفخيم التصوير .  
وبعد ، فما يكاد يخيم الفسق حتى تحتشد دار صاحبنا ودور أمثاله  
بالوافدين للاستخبار ، والاطلاع على ما أجد الباب العالى من  
جلائل الآثار !

واعلم أولاً أن كل شئ يجري على الدولة لا بد وأن يكون برأى  
السلطان وتدبيره ، ودهائه وجبروت حيلته ولو بدا لك في هذا الأمر  
كارثة ، ورأيت منه مصيبة واقعة وبليّة لاحقة . وهل بعد قوة  
السلطان قوة ، أو وراء دهائه دهاء ؟

ولعمري ، ما جاءت البشرى بانسلاخ ولاية من تلك الولايات  
الثلاثين ، أو وقعت على الدولة بليّة من إحدى الدول الغربية ، كما  
احتلت الجنود الفرنسية بعض جماركها أو تدعن لبعض المطالب ،  
ما حدث شئ من ذلك ونحوه ، إلا قال قائلهم : « دى سياسة أفندم !  
فيزر صاحبه على إحدى عينيه ويهز رأسه ويقول : « دى سياسة كبير »  
فيصيح الثالث : « أمال أفندم — لازم يا ديشاه هو اللي عاوز كده .  
إذا كان هو مش عاوز ما كانش يحصل . إيش عرفنا إحنا ؟ دى  
سياسة فوق عقول ! »

وسرعان ما تشرق وجوه الجماعة ، ويتطرح الهناء وتتصافح  
الأيدى ، وتتضام الصادور إلى الصدور ، وتبسط الحدود لتحيات  
الشغور !



والآن وقد هدأت ثورة هذا القلم ، بما ناله من الجهد والتعب ، نستطيع بحمد الله ، أن نصرف عنانه إلى حيث نشاء ، فهلم إذاً إلى معاودة الحديث في الحكايتين والله المستعان : وإذا كنت سأقتصر على إيراد حكاية واحدة ، فلعلك واجد فيها أفخم وأضحك ، وأبلغ وأعظم ، من كل ما انبث وانبسط ، وشاع وذاع ، وملا الطباق ، وسطع في الآفاق ، على جميع ألسن الحكايين ، من يوم عبد الحميد إلى يوم الدين .

احتشد الجمع ، على العادة ، في دار صاحبنا ، وجعلوا يتناولون في أمر الدولة ، وعظمة الدولة ، وقوة جيوش الدولة ، وسياسة عبد الحميد ، وشدة دهائه ، ويعيد مراميه الخ . . .

وبدا لبعض الحاضرين ، وكان مصرياً ، أن يسأل سؤالا ، فخاف وجبن . والسؤال لا غنى عنه ، ولا مفر من العلم بالجواب عليه ، فخط المسكين إلى الزعيم عنقه ، وقال : « ولكن بس ، بس ! » أما باقي الكلام فكان يضطرب في حنجرتة اضطراباً « لا يرتقى صدراً عنها ولا يرد . » فقال له : « بس ماذا ؟ مالك لا تتكلم ؟ » فأعرض الرجل جفنيه ، وحد عزمه وقال ، وكان صوته هجس هاتف يبي من وراء الأفق : « بس مسألة الدونمة<sup>(١)</sup> ، يعني أن الدولة ليست معتنية بالدونمة ! » وسرعان ما استلقى الزعيم على ظهره مقهقهاً وهو يقول في نبرات مليئة بالتهكم والاستهزاء : « نعم ! معك الحق .

(١) الأسطول وكذلك يدعو الترك والمتركون .

إن الدولة لاتعنى بأمر الدوننمة.» ثم اعتدل، وألبس وجهه ثوب الجبد، وجعل يدير طرفه في الحاضرين، وتراه يتلفت ذات اليمين وذات الشمال، ويرفع بصره إلى فوق وإلى تحت، وإلى قدام وإلى وراء. ثم قال: «فيكم من يكتم السر؟» فأجابوا جميعاً في نفس واحد: «في بير!»

«إذن فاسمعوا: لقد زرت المايين ذات يوم، وأبديت لفخامة الصدر الأعظم مثل هذه الملاحظة، فأظهر الموائقة لى، والندامة على تقصير الدولة في أمر الدوننمة، وغمز لى بعينه غمزة خفيت على جميع حاضرى المجلس. فلما هم الجميع بالانصراف، ضغط على يدى واستبقانى. حتى إذا خلا له وجهى، ولم يبق معنا أحد قال لى: «إذا انتصف الليل فامض إلى شارع كذا، فاذا بلغت الموضع الفلانى فخذ على يمينك في أول شارع، ثم خذ على يسارك في ثالث حارة، ثم عد ثلاث حارات وادخل في الرابعة، وستلقى زقاقاً على يسارك، فاسلكه حتى تنتهى إلى خربة على يمينك. وستجد على مدخل هذه الخربة رجلاً شحاذاً رث الثياب، مقنع الوجه، نافعل ما يأمرك!» ومضيت في الميعاد وإذا الشحاذ في الانتظار، فما أن رآنى حتى أجال طرفه في الأرض والسماء. ولما أمن عيون الأنس والجن، ودابة الأرض، وصدق الطير في أوكارها، أسرع إلى زاوية في الخربة، وظل يفحص عن الأرض إلى أن انكشف له غطاء من الحديد فرفعه، ودفعه إلى ما دونه، وتدلى ورأى. وأعاد الغطاء فوقه. وتدلينا في سلم عددت له ١٢٧ درجة. ثم انتهينا إلى دهليز طويل، سلكناه



منه إلى دهليز آخر أعرض وأطول ، وما زلنا ننعطف من دهليز إلى آخر ، حتى أفضت بنا خاتمة السعي إلى فضاء يزيد على التسعين ألف فدان ، وقد ازدحم « بالورش والترسخانات » العظيمة المائلة التي لا نظير لها في جميع الدنيا ، وإذا خلق من الناس لا يحصيهم إلا خالقهم .

« ويكشف الشحاذ النقاب عن وجهه فاذا هو صاحب الفخامة خليل رفعت باشا الصدر الأعظم بنفسه ! وإذا في هذا العالم ثلاثون مليوناً من الصناع معهم نساؤهم وأولادهم ( يولدوا أو يستولدوا ) لا يرى أحد منهم صفحة السماء أبداً . وكلما أتموا بناء مدرعة ، أو نسافة أو ( فرديت ) ، أو خطاف ( دردبور<sup>(١)</sup> ) من شباك البحر ( لا من شاف ، ولا من سمع ) . حتى يأتي اليوم المعلوم ، وحينئذ تخرج الدونمة للقضاء على أساطيل الدول جميعاً !

الله أكبر ! الله أكبر ! ما شاء الله ! ما شاء الله ! نصر الله السلطان ! آمين آمين !

وسلام على فلان بك في الحكاين ورحمة الله عليهم أجمعين .

(١) دروب : كلمة عامية تقابل في الفصحى : أزلق .

## مع ذبابة

قال لي صاحبي في مستهل حديثه ، ولقد رويت لقراء « الثقافة »  
أحاديث عن صاحبي هذا ، ولكنني لم أقل لهم من هو؟ ولا ما صفتة؟  
ولم أكشف لهم عن أية خلة فيه ، ولم أشر إلى أي شيء يعطي القارىء  
ولو فكرة ضئيلة عنه ، حتى يحل أحاديثه من نفسه في الزاوية التي  
تكافئها من التقدير . وفي الحيق أنني ، في هذا ، معذور ، فالرجل  
صديقي من عهد طويل ، وما نكاد نفترق إلا على نية لقاء . فليس  
من اليسير أن أهتف من صفتة بما عسى أن يكره ، وكيفما كان الأمر ،  
فانني أكتفي في تقديمه اليوم ، بأنه رجل حاد الذكاء وحاد المزاج ،  
مرهف الحس ، دقيق الملاحظة ، سريع الخاطر ، حاضر الحكم على  
كل ما يسنخ له من الأشياء ؛ وكثيراً ما يكون حكمه نقداً لاذعاً  
تدفعه ثورة النفس . وأنه بهذه الخلال ليشقى الشقاء كله ، ويتعب  
صاحبه التعب أجمعه !

يغضبه ويشير أتفه شيء يلحظه من الناس مما لا يبعث انتباهي  
ولا انتباهك ، ولو كان هذا الشيء مما لا يعنيه ولا يتصل به بأي  
حال . فاذا رأى مثلاً بائعاً من هؤلاء الباعة الجوالين يحلف لمساومه  
بأنه باعه بأقل مما اشترى ، ثار ثأره ، وجعل يرغب ويطلب ، ويرثي



لحال الزمان من لؤم أبناء الزمان ! وإذا أصاب ثلاثة يقفون في غير حاجة ، على الطوار ( الرصيف ) فيعوقون السابلة ، وقد يلجئون بعضهم إلى التدلى في الشارع ، ليضوا لطياتهم ، فيتعرضون بذلك لتلك الفواتك العابرة التي أصبح لا ينقطع لها في طرق القاهرة مرد ؛ رأيته يقف بهم فيلومهم ويبكتهم ، ويضرب لهم أبلغ الأمثال على سوء عملهم ، وقلة ذوقهم ، وفداحة جنائيتهم في وقفهم السمجة ، على من لا جناية لهم من الناس ، غير مبال بما يلتقى من مثل أولئك الأردال ! على أنه ، مع هذا ، طيب القلب ، صافي النفس ، لا يحتاج في رده إلى الرضاء إلا إلى أيسر قدر من الاعتذار ، مهما يقع على شخصه هو من أسباب الاعنات والاضطراب ، وإن ليلة واحدة لكنيلة بأن تغسل صدره من كل ما أجن لامرئ من الحسقد والاضطغان !

هذا صاحبي ، وبحسبك اليوم معرفة هذا القدر من خلاله . فلنمض في حديثه على اسم الله . زارني ذات يوم من أيام هذا الأسبوع ، فكان أول ما لاحظته منه اطمئنان الوجه ، ووداعة النفس ، ورفق الحديث ؛ وهذه أشياء عهدى بها منه أقل من القليل .

وسألته عن حاله ، كما يسأل الصديق عن حال الصديق . فقال بعد أن حمد الله وأثنى على جليل فضله : لقد خضت عشية أمس ساعات ثقلا جداً ، لقد غاظتني وأبرمتني ، وفرقت نفسي ، وأطارت لبي ، حتى جازت بي أقصى حدود الصبر ، وعصفت بكل ما يقدر للمرء

من الاحتمال ، فقلت له : « شنشنة أعرفها من أخزم » ، ولكن قل لي :  
كيف كان ذلك ؟

قال : استويت للعشاء ، وكنت شديد الجوع ، وبى من الشهوة  
للطعام مالا أجده فى أكثر الأيام ، وطعامى كما تعلم ، قل وأكثر ،  
إنما يوضع بين يدى جملة لأصيب من أى ألوانه أشاء فى أية لحظة  
أشاء . وما كدت أسمى الله وأحور يدى إلى الصحيفة بأول لقمة ،  
حتى رأيت ذباباً قد هوى إلى مهوى أصابعى من الصحيفة ، نذيبته ،  
فعاد لتوها إلى موضعه ، وجعل يلف كما كان يلف ، فعدت إلى زجره ،  
فعاد كذلك . فأدرت الصحيفة لأصيب مما لم يصب ، فسرعان ما دنب  
إلى حيث أرسل يدى ، وأقبل من فوره على شأنه ، ما دفع إلا رجع ،  
ولا زجر إلا عاد ؛ فلم يسعنى إلا أن أرفع هذه الصحيفة الملوثة الموبوءة ،  
وأخفيها بعيداً وأفرب غيرها ، وعودى على الله . على أنه لم يعنها  
ولم يعفنى ؛ فلقد هبط منها مهبطه من أختها ، فأدرت الطبق كذلك ،  
فدار معه حتى استقر منه فى منحدر يدى . وكان الغيظ قد بلغ فى قصارى  
قصاره ، فأهويت بكفى عليه لأقتله وأخلص من أوامه وأذاه ، فتكسر  
الطبق شظايا ، وتناثر الطعام على الخوان ، وأصاب وجهى وثوبى  
منه رشاش ، أما الذباب فلم يكنه الإفلات من هذه الضربة الساحقة ،  
بل لقد راح يمرع فى هذا الذى تطاير على الخوان ! فقامت عن المائدة  
وأنا أحلف بكل مؤثمة من الأيمان ألا أذوق فى ليلتى أى طعام !  
أويت إلى فراشى ، أرجو بهجعة خفيفة أن أستريح ولو من بعض



ما أجد . ولكن كيف لى بالنوم وقد قيل : « لا نوم لجائع » .  
ولو دار الأمر على الجوع وحده لكان الخطب ، فان وراء الجوع نار  
الغيظ وثورة الغضب ، وهذان وحدهما زعيان بنفى المنام الليلالى الطوال .  
وأفكر ، وفيم لعمري أفكر إلا فى الذباب ، ولؤم الذباب ،  
وتهافت الذباب ، وأذى الذباب ، وخطر الذباب ، وما يجلبه الذباب  
من علل وأسقام ، وأرزاء جسام !

وجعلت فى مطرحى ، أسائل نفسى ، وقبل كل شىء أنبهك يا صديقى  
إلى ما تعلم من أننى عظيم الايمان بالله تعالى ، وثيق الاعتقاد بظهر  
الغيب فى بالغ حكمته فى كل جليل ودقيق من خلقه .

رحت أسائل نفسى : ترى ما حكمة الله الحكيم فى بث هذا  
الذباب ، وهو على ما ترى لا يحمل إلا قدراً ، ولا يولى إلا أذى  
وضرراً ؟ ولكم يهدم ، بفرط تهافته ، الأعصاب ، ويشيع مالا يحصى  
من العلل والأوصاب ، ويبلغ وحده مالا تبلغ الحروب من أسباب  
الدمار والخراب ، ومع هذا لم يظهر العلم له أية ثمرة ولو دقت ،  
ولم يجبل طول الزمان له منصفة ولو هانت . بل إنه لشركه ، وأذى  
مستمر فى أوله وآخره ، وبلاء عظيم فى ظاهره وباطنه . لا يدع الانسان  
فى لحظة من نهار ، فى اطمئنان ولا قرار . وكلما زاده عن وجهه أو يده ،  
أو عن طعامه أو شرابه ، عاد من فوره ، فأثبت رجله حيث كانت ،  
ما تنحرف قيد .! من الشعرة ، لا من وراء ولا من قدام ،  
ولا ذات اليمين ولا ذات الشمال . بحيث لو استعان المرء بأدق الآلات  
الهندسية والفلكية ما بلغ هذا المدى فى تحرير المكان . ولقد يبلغ



من شدة تهافته أن يقع في الطعام أو الشراب ، فإذا ترك وشأنه مات من الاختناق ؛ بل إنه ، على حدة حسه ، ليقع في فنجان القهوة ، وهي لم تزل تتنفس بالحر الشديد من البخار . وما أرى أنه خرج من هذه المنية الشنيعة بشيء إلا أنه أغشى نفسك ونغص عليك مزاجك ! وبعد ، فأنت خبير بما يحمل هذا الطائر اللثيم من ملايين المكروبات ، لا تفتأ تفرخ أشد العلل وأفتك الأوباء في حين تعبي السلامة منه ، ويعجز الأمن من أذاه . فإذا زعمت أن من الفواتك ما يقتله ، فذاك بقدر ما تظل الأبواب والنوافذ محكمة الأغلاق ، حيث يغمر الغرفة ظلام ، ويدعو التنفس في جوها إلى الاختناق حتى إذا فتحت النوافذ والأبواب لتجديد الهواء دخل من الذباب أكثر مما خرج ، وتطير منها في الغرفة أعظم مما هلك !

اللهم إن هذا بعض ما ابتلى الناس من الذباب من قديم الزمان أو من أول الزمان . فترى أيكشف العلم فيه مزية ، ويقع منه على منفعة تكافئ هذا القدر الهائل من الضر والفساد ؟

وجعل الذهن ، برغمي ، يدور في هذا ملتصقاً موطن الحكمة في هذا الخلق الضار الشديد ، وكلما طلبت التفرج بالفكر في شيء آخر ، رأيت الأمر يتعاصى عليّ ، فقد استغرق حديث الذباب كل تفكير ، وملك على الذهن جميع مذاهب التصور والتقدير !

وفيا أنا من ذلك ، إذ قرع مسمعي طنين ذباب ، ولكنه أشبه ما يكون ، في عنفه وقوته ، بهممة فهد أو بزئير أسد . فحولت وجهي وأرسلت بصري ، فإذا ذباب في جرم الغراب ، ثم لم يرعني إلا أن



جعل ينتفخ وينتفش حتى صار مثل الديك الرومي ، ثم ما زال ينتفخ  
وينتفش حتى صار في حجم النعامة ، لولا أن جسمه كله كاس بالريش  
لا يعرى منه شيء ، ولولا أن رأسه موصول بما بين كتفيه لا يفصل  
بينهما عنق . فاذا حرك رأسه فمن أعلى إلى أسفل ثم من أسفل إلى  
أعلى ، كأنما وصل بين رأسه وكتفه بمفصلة ، ولولا أنه مزود في  
مقدم صدره بخراطيم على حين ليست للنعامة خراطيم .  
ويقبل هذا الذباب الضخم على وهو يرفع رأسه ويخفضه ،  
فتداخلني من الذعر ما أزاغ البصر ، وكاد يخلع شعبة من شعب  
القلب . فبادرني بقوله في لسان عربي صحيح : لن تراع ! لن تراع !  
فان الشيطان إذا كان قد أزلني فكرك إلى هذا فانه ما زالت تعصمك  
قوة إيمانك . فقلت : الحمد لله رب العالمين . قال : فلو عملت  
بقول الله في كتابه الكريم . « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ  
فاستعد بالله إنه سميع عليم ! » فقلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم  
بسم الله الرحمن الرحيم . قال : والآن فاسمع يا هذا : ما أشد ذهابكم ،  
يا بني آدم ، بأنفسكم وافتتانكم بعقولكم ، وتنايهكم بهذا القدر الضئيل  
الذي تعلمون من ظاهر الحياة الدنيا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا . »  
تساءل يا هذا في حكمة الله ، جل مجده ، في خلق الذباب  
وبشه ، وتنكر ما يلون للناس من الأذى في صحتهم وفي حياتهم ، وقد  
ذهب عنك أيها الأبله ، أن هذا الذي تنكر من فعل الذبان ، هو  
بعض حكمة الحكيم في خلق الذبان . فلقد تعلم أنه لولا شيوع  
الأمراض والعلل ، لما مات أكثر من يموت من الناس في كل

يوم وفي كل ساعة ، وإذاً لا طردت الزيادة في عدتكم ، يا بني آدم ، حتى تضيق بكم مساحة الأرض ، ويعجز بطنها وسائمتها عن مواتاتكم بما يكفي لبعض طعامكم وكسوتكم . فلا مفر لكم من التنافر والتقاتل في التماس أسباب العيش ، حتى ليقتل الوالد ولده ، وتأكل الأم طفلها ، طوعاً لغريزة استبقاء الحياة . وكذلك لا يلبث العالم كله أن تسوده الفوضى وهي أهم عوامل الفناء . فالموت إذاً أيها الأبله ، هو أبلغ أسباب الحياة ! (١)

ثم إذا كنتم تنكرون ، أيها الأغفال ، ما ينشر الذباب فيكم من أسباب الأمراض والعلل ، وتتمنون على الحياة لو تعيشون الدهر في صحة وعافية ، فمن أين ، لعمرى تعيش هذه الجيوش الجرارة من الأطباء والمرضين ، والمرضات ، وخدم العيادات والمستشفيات ، والصيادلة وعمال الصيدليات ، وأصحاب مصانع الأدوية والعاملين فيها ، ومنتجي المواد الأولية للعقاقير الطبية ، ومن وراء كل هؤلاء ممن يعولونهم ، ويعودون بهذا السعى على شملهم !  
ثم لا تنس العاملين في أسباب الموت من « الحانوتية » والحمادين ( التريبة ) وباعة الأكفان ، وسواقى عربات الموت ، وغير أولئك

(١) رحم الله المتنبئ إذ يقول :

سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها  
منعنا بها من جيئة وذهوب  
تملكها الآتي تملك سالب  
وفارقتها الماضي فراق سليب



من لا يصيبون الأرزاق والأقوات إلا بفضل الموت والأموات !  
وسكت برهة ، ثم قال : أفأمنت الآن أن ذباباً واحداً أجدى  
على العالم ، وأعود بالخير على نظامه منك ومن عشرة من أمثالك ؟  
فقلت : آمنت بالله .

ثم لم يرعنى إلا أن أرى هذا الخلق الكبير ، جعل يصغر ويضمّر ،  
حتى عاد ذباباً في جرم سائر الذباب ، ثم طار فوقع على رميقة عيني ،  
ونجعل يفحصه برجله فحفاً غير رقيق . وما كدت أتهيأ للقيام ،  
حتى أدركت أنني كنت في أحكم الأحلام !

وفرغ صاحبي من حديثه ، فقلت له : إذا فقد آمنت بأنك في  
هذه الحياة ، لا تساوي ذباباً ؟ قال : ولا عشر ذباب . وكذلك  
يكفيني الله شرور الغرور والافتتان ، وهما أشد مهالك الانسان .  
فقلت : رحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

## عواطف

لم أعر في معجمات ، ولا فيما وقع لي من تعبيرات المتقدمين ، أنهم كانوا يطلقون كلمة « عاطفة - عواطف » على ما يطلقها عليه أهل هذا العصر الحديث ، وأعني هذا الاطلاق العريض . فأصل العطف على وجه عام ، الالتفات . ومنه عطف إليه : مال ، وعطف الشيء : أماله وحناه . وتعطف عليه ، رق له وبره . وعطفت الناقة على ولدها : حنت ودر لبنها . ومن هذا المعنى ، فيما أظن ، جعلت هذه اللفظة تتسع في إطلاقها حتى أصبحت تدل على نوازع النفس وأهواء القلب جميعاً . وكذلك تتطور الألفاظ مع اطراد الزمان ، حتى تكاد تلابس ، في كل عصر ، معنى جديداً .

وإذا كانت لفظة « العواطف » تدل اليوم أكثر ما تدل على خواج القلوب ولواعج الكبود من هوى وصبابة ، ووله لاحق ، وغمز على الحشا من عشق وتبريح غرام - فان هذه العواطف كثيراً ما يكون لها مشوى آخر غير القلوب وغير الكبود !

نعم ، لقد يكون لها مشوى آخر ، وإن كانت جمهرة الناس لم تأبه له ولم تلتفت إليه ، على أن من هذه العواطف ما هو أشد وأعنف ، ومنها ما هو أظنى وأجرف ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون !



لقد يروعك مرأى عاشق أدنفه الحب ، و برحت به الصباية ،  
 وقد هجره المحبوب قلى أو تجنباً ، فبات المسكين يساهر النجم ، ولا يغمض  
 جفنه عن تصفح وجه البدر ، لعله يصيب فيه بعض الغناء عن وجه  
 الحبيب . ولعمري ما هو بمغن عنده شيئاً ، وإلا فما هذه الأنفاس  
 الحرى كأنما يتفرج بها من الحشا سكير بركان !

تشهد هذا المشهد ، فيخيل إليك أن هذا العاشق المسكين لا يرى  
 الوردة وقد تخرجت من كهها ، والرجسة وقد ضنت على ثدى أمها ،  
 والنسيم وقد تلتطف ، والجداول فى الروض ، وقد تعطف ، والأرج وقد  
 شاع فى الجو وتردد . والمزار وقد شدا على الأيك وتغرد - اللهم إنه  
 لا يشهد شيئاً من ذلك إلا ذكر به الحبيب . بل إنه ليرى هذا كله  
 من بهاء الحبيب . ولولا أنه أعار الطبيعة كلها بعض جماله ما سطع  
 فيها بدر ، ولا تأرج زهر ، ولا ضحكت الورود على الأغصان ، ولا  
 صدحت الفواخت على الأفنان . كلا ! بل لشاه كل جميل ، ولاستحال  
 دبوراً هذا النسيم العليل ! بل إنه لا يرى الحياة كلها إلا جحياً  
 لا يطاق فيه العذاب ، ولا يرجى ، على الدهر ، منه ثواب .

لقد يروعك الأمر ، إذ تشهد هذه العواطف ، ويتعاطمك . وسرعان  
 ما تترقى للقلب وترثى للكبد ، أو سرعان ما تغبط القلب والكبد ،  
 إذ استأثرا من دون سائر الجوارح بجولان هذه العواطف التى تشقى  
 المرء كل هذا الشقاء ، وتسعده أحياناً بجميع ذلك الهناء !

وإننى أؤكد أن من ظن هذا فقد ضل ضلالاً بعيداً !  
 ولقد أسلفت عليك أن هناك ألواناً من العواطف تشوى إلى غير

الكبود وغير القلوب ، وأن منها ما هو أشد وأعنف ، ومنها ما هو  
أطغى على المرء وأجرف . وإني لم اليوم منها بثلاث فحسب : أولها  
عواطف البطن ، وثانيتها عواطف الغرام بالدرجة ، وهذه مقصورة  
علينا نحن معشر الموظفين الحكوميين دون سائر العالمين . أما ثالثها  
فحب الشهرة وذهاب الصيت .

ولعلك تظن بي القصد إلى المزاح حين أزعم لك أن للبطن والدرجة  
والشهرة عواطف تجيش وتترقرق . بل إني لأزيد أنها قد تبلغ من  
بعض الناس ما لم يبلغ غرام قيس بن الملوح بليلاه ، ولا هيام قيس  
ابن ذريح في لبناه !

وأرجو ألا تظن أن هذا العاشق المهجور الذي طوى ليله وهو  
يساهر النجم ، ويتصفح صفحة البدر ، يذكر به الحبيب ، ويتمنى  
عليه اللقاء القريب ، بأشد حرقة ، ولا أعظم لوعة من هذا الذي  
يتشهى الأكلة الشهية ، ويتمنى الوجبة الحنية . وإنه ليتمثل صينية  
البطاطس ، وقد ديفت بالطاطم والبصل ، ورصعت بالشوم ترصيعاً .  
أما ما جللت به من مزع اللحم السمين ، فجدير أن يزدرد بالشمال  
وباليمين !

ولا تنس هذا الطاجن الذي حشى رزاً معالجاً بالزبد ، وقد دفن  
الحمام السمين فيه دفناً ، وظل في الفرن الهادي ساعات ، حتى  
نضجت قشرته ، واحمرت بشرته !

وأما صفحة الكنافة فما أروع دلالها ، وأحلى وصلها ، خصوصاً  
إذا فاقت سمناً وسكراً ، وحشيت زبيباً وفستقاً وصنوبراً ، وغشى وجهها



بالقشدة الخالصة . وما شاء الله ! وسبحان من أحسن وتفضل ،  
والشكر لمن أنعم وتطول .

اللهم إن هذا العاشق الصب ليقضى ليله الأطول في تمثل هذا  
وتمنيه ، وله من شدة اللوعة زفير ، أحمى من نار السعير .

ولقد يعمد في هيامه إلى باب الحاتق وكبرى المطاعم ، فيجد  
ما يسطع من ریح القنار ، أزكى مما تجد أنت من النسيم جاز بالروضة المعطار !

أفليس هذا وأمثاله محبين عاشقين ، بل محبين والهين ، لا يفتأون  
يشكون لوعة البطون ، كما يشكو غيرهم لوعة الكبود ؟

أما حب الدرجة وما أدراك ما الدرجة ! الله أكبر ! هل سمعت  
بالسيل الجارف لا يصدده حد ، ولا يثبت بين يديه سد ؟ وهل سمعت

بالريح الصرصر العاتية ، تدمدم رائحة أو غادية ، فتمتلخ في مغارسها  
الأشجار ، وتقتلع من مبانيها الأشجار ، وتأتى على كل قائم بالخراب والدمار !

هو كل شغل القلب ، أستغفر الله ! بل إنه لحب قد استولى على  
كل نوازع النفس ، وملك جميع أقطار الحس ، حتى لقد تقول للصب

المتيم ، لقد اشتد البرد يا فلان في هذه الأيام ، فيجيبك من فوره :  
يشاع أن « لجنة الترقيات » ستعقد في صدر هذا الأسبوع المقبل !

ولقد تقول لمتيم آخر : ما أهول هذه الحرب وما أروع فظائعها .  
فلا يكون جوابه إلا : أيجوز أن يرقى فلان إلى الدرجة الرابعة ولما يمض

عليه أكثر من خمس سنين في الخامسة ، في حين أننى سلخت  
فيها ثمانياً ؟

ولقد تقول لأحد هؤلاء المتيمين الواهين على الدرجة إن فلاناً

رجل فكه خاضر البديهة ، حسن الحديث . فيكون رده : لقد رقي إلى الدرجة الثالثة في العام الماضي . وهكذا ! . . .

وماله لا تكون الدرجة كل شغله ، وماله لا يجعل في الدرجة حديثه أجمعه . أليست الدرجة هي عينه التي بها ينظر ، وأذنه التي بها يسمع ، ورجله التي بها يسعى ، ويده التي يعالج بها ما تعالج أيدي الناس ؟ ولقد يكون العاشق المدنف من أصحاب القلم ، أو من المنتجين لصناعة القلم ، فلا يستحي ، إذا لاح له شبح الدرجات ، من أن يكتب للناس : هل أدلكم على أكبر أديب وأعلم عالم ؟ إنه والله للوزير القائم . ولقد عقدت إمارة البيان فأضحى ولا يتعلق بغيره فيها إنس ولا جان . وأما من يليه في هذه الأمانة ، فهو ، ولا ريب ، سعادة وكيل الوزارة ! وهكذا كما انصرف وزير ووكيل ، وخلفهما وزير ووكيل ، ولو تصرم الجيل بعد الجيل !

ولعمري ، لو قد ذكر الله تعالى أحد هؤلاء بعض ذكره للدرجة ، لرقى في الآخرة درجة الصديقين ، وتبوا مجلسه معهم في أعلى عليين ! وأما غرام الشهرة فشأنه أعجب وأغرب . وإن في هؤلاء المتيمين بالشهرة وذهاب الصيت لمن يرجو أن تعيد الحكومة شئق المجرمين في الميادين العامة ، حتى إذا عدم الوسيلة إلى بعد الصيت ، وسيرورة الذكر ادعى على نفسه جرماً لم يقترفه ، وقتلاً عمداً لم يجرحه ، ليحظى بالشئق على أعين الآلاف المؤلفة من الرجال والنساء والأطفال . ولهذا غرام الشهرة مذاهب وفنون لا يتسع للتصرف فيها هذا المقال . ولعل من أبداع وأروع ما قد رأينا في الماضي القريب ، أن



خلقاً من الخلق مغرمون متيمون بأن يشتهروا بالعلم والأدب ، فى حين  
ليست لهم وسيلة إلى شهرة فى العلم والأدب ، ولا ينعتهم أحد بعلم  
ولا أدب . إذاً فليزجوا إلى الصحف المقال بعد المقال لا يضمن شيئاً  
إلا تركيبة أنفسهم ، والاشادة بفضلهم ، والهتاف بتفردهم بالأدب  
والبيان ، وبراعتهم فى هذا كل إنسان !

على أنه أيضاً لم تظهر لهم شهرة ، ولم يسر لهم ذكر ، ولم ينعتهم  
بشيء منه أحد . إذاً فكيف الحيلة ، يا ناس ، فى إطفاء هذه اللوعة ،  
وإيراد هذا الغرام ؟

لم يبق من سبيل إلى هواه إلا أن يهدم كل من يظن أنهم بسابقتهم  
وموضعهم من أهل الفضل والأدب ، يحولون بينه وبين مناه ، حتى  
يصبح وإياهم بدرجة سواء .  
ولكن أنى له ذلك كذلك ، وليست له ساق يقوم عليها الهدم  
ولا لبناء ؟

يا سبحان الله ! وهل لا بد للتطاول من قدم وساق ؟ اللهم إن  
له فى النباتات المتسلقة كاللوف والبلاب لمثلاً جليلاً ، وإذاً فليتسلق  
على كل مرتفع عال من الناس . فاذا عدم الهدم ، لخذلان يده ، لم يعد  
أن يؤذن بعلمه وفضله ، وأدبه وبيانه ، من هذا المرتفع السابق !

أصدقت يا سيدى القارىء ، أن هناك عواطف ليس جماعها  
القلوب ولا الكبود ، وأن هناك غراماً غير ما يعهد الناس من الغرام  
له سعيير أحمى من كل سعيير وضرام ألدع من كل ضرام ؟

## على ابراهيم في المرأة

لا شك أن المعروف عن جماعات الأطباء أنهم أهل إيثار وطيب  
نفس بالتضحية ، بالغة ما بلغت ، في سبيل الواجب . ولكنني أراهم  
اليوم قد ظهروا بأشد مظاهر الأثرة وحب الذات . فلقد أبوا إلا أن  
يستأثروا دون سائر الناس بالدعوة إلى تكريم الدكتور على باشا ابراهيم !  
اللهم إن الطب من مزايا الدكتور على ابراهيم حقاً ، ولكنه  
ليس جميع مزاياه . فاذا كان للأطباء أن يحتفلوا به في يوم من السنين  
فان من حق العلماء الموسرين من الثقافة الثمينة الغالية أن يحتفلوا به  
أيضاً ، كذلك من حق نفده الفنون الجميلة أن يفرض لهم نصيب  
جليل في الاحتفال بزعم الناقدین . ولا تنسوا الدعوة إلى الإصلاح  
الاجتماعي ، واخوانهم المضطاعين باثارة النشاط الاقتصادي ، فان  
هؤلاء وهؤلاء ينبغي أن يخصصوا بحظ من هذا التكريم كبير . وكذلك  
القول في العاملين على إشاعة البر والنجدة ، والاسراع إلى معونة  
الضعفاء العاقين .  
ولا ريب في أن ممن ظلموا بهذه الأثرة ظلماً بيناً أصحاب البداءة  
من أولاد النكتة النافذة ؛ فما كان ينبغي أن يجرموا كذلك الاشتراك  
في تكريم هذا الأستاذ العظيم !



وكيفما كان الأمر ، فانه إذا كان حضرات الأطباء قد أبوا إلا حباً للذات ، واستثثاراً بالدعوة إلى إقامة هذا الاحتفال ، فان الأعياد السبعينية والثمانينية وما يليها قادمة إن شاء الله ، وحينئذ تستطيع هذه الطوائف المحرومة المظلومة أن ترد لحضراتهم الجميل !

وبعد ، فلا ريب في أن من ترامت إلى علمه عبقريات الدكتور على ابراهيم ، وآثاره الضخام في الجراحة ، على وجه خاص ، ولم يكن قد رأى شخصه ، أو طالع اسمه ، لا يمكن أن يتصوره إلا عملاقاً ضخماً الجسم فارع الطول ، لا يحيط النظر بمساحته جملة ، ولكنه إنما يدر كها بالتقسيط ولكن الله قادر على كل شيء ، قد أودع كل هذه الصروح الشمخرة من العبقريات في هذا الجسم اللطيف الدقيق :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وما شاء الله كان !

سيداتي ، سادتي :

لا تنتظروا مني أن أبسط القول في مواهب الدكتور على باشا ابراهيم ، فقد كفاني المؤونة في هذا حضرات الخطباء والشعراء الكرام . ولكنني أذكر حادثة واحدة تدل على مبلغ دقة هذا الرجل العظيم ، وحرصه الغريب على أداء الواجب على وجهه ، دون أن يفلته منه مقدار خردلة واحدة :

ذلكم بأننا من بضع سنين كنا في الإسكندرية . وفي ذات عشية تواعدنا على اللقاء في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي لנסافر

معاً إلى القاهرة على طريق الصحراء ، ليدرك امتحان كلية الطب  
وفي الوقت متسع كبير .

وسرنا ، على اسم الله ، في سيارته طبعاً . وفي صحبتنا نجله  
الدكتوران العزيزان . وهنا لا أحد من ايراد هامش يسير من  
هوامش هذه الرحلة . وذلك أنه اعترضنا في جهة الدخيلة منعرج كان  
يعالج بالرصف لأن أرضه قد هشت وأعلن مجتازوه بوجود تخفف  
السيارات من راكبيها ، إلا أن يكون واحداً مثلاً ، حتى لا تسيخ  
عجلاتها في الرمال . ونظر بعضنا إلى بعض وتهيأنا للنزول . ولكن  
الأسطى عبده كان ، على ما يظهر ، قد سبق إلى زنة الحمل ، فمضى  
قدماً ولم يرعنا إلا أن يجوز بنا الرمل ، ولم تكد العجلات ترسم فيها  
أثراً !

ولقد حمدت الله على أنني كنت معهم . ولولا هذا لاستحالت  
السيارة بالوناً وطلبوا القاهرة بطريق الجو الذي يفزع الدكتور  
من ذكر اسمه ، كما أن لي الشرف بأن أشاطره الفزع من هذا الاسم  
الكريم !

بلغنا بسلامة الله محطة شل ، فأفطرنا وأخذنا قسطاً من الراحة ،  
ثم استأنفنا السير واندفعت السيارة في طريقها ، حتى إذا صرنا على  
نحو ثلاثين كيلو متراً من مينا هاوس فوجئنا بما لم يدخل قط في  
الحسبان . فلقد وقفت السيارة فجأة ، وأوماً الأسطى عبده إلى دخان  
يتنفس به خزان الماء دليلاً على أن المروحة قد تعطلت . فجعل الماء  
يغلي فيه غلياناً ، وتدلى فكشف الغطاء ، فاذا السير قد انقطع ،



فشمر للعلاج بوصله وسرعان ما استحال الدكتوران حسن وعلى ،  
مريضين يسعفان الدكتور عبده بمطالبه فى إجراء هذه العملية . هذا  
يناوله المخراز ، وهذا يثقف له السلك المشنى . ثم واصات السيارة  
سيرها حتى إذا قطعت كيلومتراً أو بعضه توقفت ثانياً ، فوصلوا  
السير من جديد ، ثم مضينا بضع مئات من الأمتار . ثم توقفت إذ  
لم يبق فى السير فضل لوصول ولا التثام ، فجاءوا بجبل من تلك الجبال  
التي شدت بها سلال الفاكهة ، وأقاموه مقام السير . ولكن لم تمض  
السيارة طويلاً حتى استرخى الجبل ، وفتقر عن إدارة المروحة . وتدلينا  
كلنا أيضاً لمعالجة الأرض والتماس الحيل .

وقف الدكتور ووقفت بجانبه ، وإذا كان لى أن ألاحظ فى هذه  
الوقفه شيئاً ، فذلكم أننى على طول عشرتى للدكتور على باشا ابراهيم ،  
فاننى لم أراه قط فى حالة عصبية كالحال التي كان فيها ذلك اليوم ، بل  
أننى لم أكد أراه فى حالة عصبية مطلقاً .

ساكت لا ينبس بكلمة واحدة ، وإن كانت شفتاه دائمتى الاختلاج  
إذ يده لا تفتأ تخرج الساعة من جيبه ثم تسرع إلى ردها إليه ،  
ثم تخرجها ثم تدسها . وكذلك ظلت هذه الحركة الميكانيكية السريعة  
بغير توقف ولا لبث ولا فتور .

على أننى شككت فى أن يكون هذا النظر الشارد كان يفضى إلى  
صاحبه بموضع العقرب من الساعات بل الدقائق ، وأذن الله وانطلقت  
بنا السيارة بفضل بعض الحيل الميكانيكية التي أحمد الله على أننى  
لا أعرف فيها شيئاً !

سيداتي ، سادتي : راحة ليصل الميعاد بل قبل الميعاد .  
 إلى تلك الساعة ، كنت أعتقد أن الدكتور على باشا ابراهيم  
 ذاهب ليشرّف على شأن الامتحان في كلية الطب ، ويتفقد النظام ،  
 حتى أقنعني ذلك الموقف بأنه إنما كان ذاهباً لأداء الامتحان ، وأن  
 أخشى ما كان يخشاه أن يفوته الميعاد المقسوم لحضور الطلاب ، فلا  
 يؤذن له بالدخول ، فتفوت عليه سنة كاملة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .  
 وانحدرنا إلى شارع الهرم ، حيث سيارات الأجرة لا يحصيها العدد ،  
 ولا يقوى عليها العداد ، ولكن الكيادة التي أبت إلا أن تحترق في  
 جوف الصحراء ، أبت كذلك إلا أن تجمع في الطريق العامر المأهول  
 حتى كاد السائق لا يستطيع لعنائها ضبطاً !

إذاً لقد ضمن صاحبنا أن يصل إلى طلبته في الميعاد بل قبل الميعاد .  
 ولكن لقد غشني الجميع وجوم شديد ، وثنوا رقابهم حتى توسدت  
 الذقون الصدور !

وهنا لاح لحاظري شبح مرعب مهول : فصاحبي قادم على امتحان  
 شاق عسير ، وكيف له بحسن الاجابة وهو على هذه الحال من ضيق  
 الصدر ، وتكدر النفس ، وتفرق الفكر ؟ وبأى وجه تلقى مصر الأمم  
 إذا رسب ، لا قدر الله ، على باشا ابراهيم في الامتحان ، وعلى الخصوص  
 إذا لم يكن له ملحق يتعوض به ما فات ؟

إذاً ، فلا بد لهذه الحال من إسعاف ، أو من إنقاذ الموقف كما  
 يقولون !

ويعينني الله على أن أرفع رأسي ، وأنادي بقوة لم تعهد لمثلي :



يا باشا . فرفع رأسه ورفع ولداه رأسيهما وقال في فتور : ماذا ؟ فقلت له في حدة المغيظ المحقق : أوكد لك أنني لا أعود إلى ركوب سيارتك هذه إلا إذا جئتنى بشهادة حسن السير . . . والسلوك !

وسرى عنه ، وطابت نفسه ، وجعل يضحك أو يتضحك ، إلى أن افترقنا . . .

ولا أدري إذا كان نجح في ذلك الامتحان أو لم ينجح ، على أن مما يطمئنني على نجاح صديقي أنني أرى جمهرة الأطباء العظام ، وعصارة أهل الفضل وأرباب الأخطار في البلاد يحتفلون اليوم ببلوغه الستين .

ومما يزيدني اطمئناناً أن الاحتفال معقود في صميم الجامعة المصرية لا بجوار كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية !

سيداتي ، سادتي :

إن الله الذي حبا مصر بهذا النيل ، ووهبها هذا الجو الصافي الجميل ، وأطلع شمسها على الدوام آلفة وضية ، وجعل أرضها على طول الزمان ، منجبة سخية — لقد حباها كذلك بالدكتور على ابراهيم . وإذا كان الدكتور على باشا ابراهيم إنساناً كسائر الناس فإنه إنسان مخلد خلود هذه النعم الظاهرة . فهو مخلد في آثاره ، مخلد في بنيده وتلاميذه ، ثم في أبنائهم وتلاميذهم . وهكذا إن شاء الله ، إلى يوم الدين ، وتبارك الله أحسن الخالقين !

ألقيت في الاحتفال بالعيد الستيني .

## أحب أولادى وأكرههم

١ - أحبهم

تدعونى « الهلال » إلى أن أنشىء فى هذا الموضوع مقالا ، كأن  
لى فى أمر الولد شأنًا غير شأن الآباء جميعاً ، إذ شأنى فيه شأن الناس  
جميعاً ، اللهم إلا أن تكون قد تفضلت فنصبتنى نائباً عن كل والد فى  
الأرض ، من يوم كان الانسان إلى يوم يخلو وجه الأرض من هذا الانسان!  
إذا كان الأمر هكذا ، فأنى باسم من تشرفت بالنيابة عنهم أقول  
إننى أحب أولادى أشد الحب ، وأعطف عليهم أبلغ العطف ، وأجد  
لهم من الرقة والرحمة والحنان ما لا أجد لأحد فى العالمين . أحبهم لأننى  
أحب نفسى ، وهم بعض نفسى ، بل إنهم عندى خير ما فى نفسى .  
هم عصارة قلبى وحشاشة نفسى كبدى ، وأجمل ما يترقرق فى صدرى  
من منى وآمال ، وأبهج ما يطوف برأسى من حلم وخيال ، وقد تجسد  
كل أولئك أناسى تغدو على الأرض وتروح !  
وإننى لأرى أولادى إذا حضروا ، وأذكرهم إذا غابوا ، فأجد  
من اللذة والسعادة والمتاع ، ما لا تعد له كل ما فى هذه الدنيا من  
لذة وسعادة ومتاع !  
أحبهم لأننى أحب نفسى ، وأتمنى لو يكتب لها الخلود فى هذه



الدنيا ، وإذ كان الموت حقيقة لا مناص منها أبداً ، فأولادى هم  
واصلو حياتى ، ومطيلو أجلى ، ومادو ذكرى ، والمثبتون ، على الزمان ،  
لاسمى .

أحبهم لأنهم أول من يعيننى فى ضعفى ، ويسرع إلى الاستجابة  
لى فى شدتى ، ويرفه عنى فى شيخوختى ، ويواسينى فى علتى ، ويتلقى  
فى العزاء إذا هم القضاء بين الزفرة والبكاء .

أحبهم لأن اسمى ، من يوم أموت ، لا يرد على خاطر أحدهم ،  
أو يجرى بسمعه على أى لسان ، إلا بادر فسأل الله لى الرحمة وإسكانى  
أعلى الجنان .

وولد لى ولد ، وكان عندنا بواب أربت سنه على المائة ، فلما لقينى ،  
وقد انتهى إليه الخبر كانت دعوته لى : « الله يبقيه حتى يحل عقدة  
كفنك ! » ووالله ما دعى لى بدعوة كانت أبرد على كبدى ، ولا أحلى  
موقعاً فى نفسى من هذه الدعوة . ويا ليتها قد أجيبت ، ولا حول ولا  
قوة إلا بالله العلى العظيم !

ولقد قال بعض السابقين إن القرآن الكريم على كثرة ما أوصى  
الولد بالوالدين ، وأمره بشدة البر بهما ، والعطف عليهما ، والطاعة  
لهما ، لم يوص الوالد بشئ من هذا للولد ولا مرة واحدة ، وذلك بأن  
الوالد غير محتاج إلى هذه الوصية أبداً ، فالإنسان يجب ولده كما يجب  
نفسه ، بل لقد يؤثره فى أكثر الأحيان ، على نفسه .

قال زيد بن على بن الحسين لابنه يحيى رضى الله عنهم : إن الله  
لم يرضك لى فأوصاك بى ، ورضينى لك فلم يوصنى بك .

الوالد يسعى فى الحياة ويجهد ويكد ، ليستريح الولد ويسعد وينعم . وإذا ألت بالولد وعكة ، استحالت فى قلب الوالد علة . وإذا ضربته العلة ، مات أبوه كل يوم عشرين موتة ، ضارعاً إلى الله فى صدق وإخلاص أن يحول ما بولده إليه إذا لم يكن من الغدية مناص !

ولقد أرى الصغير صحيحاً معافى ، ما به أثر لجهد أو وعك ، ولكن نفسى لا تستريح إلا إذا أكثرت من حبه ، وعد نبضات عرقه . ولقد يخرج إلى الطريق لبعض شأنه ، فيمثل لى الشيطان اللئيم مكروهاً أصابه ، فأحس قلبى يتمشى فى صدرى .

وأخيراً ، فاننا معشر الناس ، مهما تصف نفوسنا ، وتطب قلوبنا ، ونترك من خلة الأثرة فىنا ، ونرض أخلاقنا على وصاة الدين بأن نحب لاخواننا ما نحب لأنفسنا — إننا مهما نبلغ هذه المنزلة الرفيعة من الفضائل ، لا نستطيع أن نحب لغيرنا أكثر مما نحب لأنفسنا ، اللهم إلا أن يكون الولد . ومما يحسن أن يذكر فى هذا المقام أنه مما جاء فى القرآن الكريم ترغيباً فى الايمان وتحبيباً فيه إلى القلوب ، قول الله جل مجده :

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَمَا أَلْتَنَاهُمْ (١) مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ . » (٢)

(١) التناهم : اتقناهم . (٢) سورة الطور .



وقال تعالى ذكره في الحزب على التقوى والتخوف من معصية الله ، والتحذير من مجانبة العدل والصواب :

« وَلِيَخْشَى الَّذِينَ كُؤُتَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . » (١)

وقد رأيت كيف أن الله تعالى في الآيتين الكرّيمتين قد رغب بمحبة الولد وأرهب ، وبغض بالخوف عليهم وحب .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ربح الولد من ربح الكهالجنة » . وقال لأحد ابني بنته : « إنكم لتجنون ، وإنكم لتبخلون ، إسمها وإنكم لمن ربحان الله » . وورد أنه حين جاءته البشري بمولد فاطمة عائشة رضي الله عنها قال : « ربحانة أشمها ورزقها على الله » .

ودخل عمرو بن العاص على معاوية ، وبين يديه بنته عائشة ، فقال : « من هذه ؟ » فقال : « هذه تفاحة القلب . » وقيل لبعضهم : « أي ولديك أحب إليك ؟ » فقال : « هما مني بمنزلة السمع والبصر ! »

وكان عبد الله بن عمر يذهب بولده سالم كل مذهب ، فلامه الناس فيه فقال :

يديروني عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم

(١) المراد بالقول السديد هنا هو ما ذهب إليه بعض المفسرين : مخالفة العدل والصواب . سورة النساء .

ومن أحسن ما قال الشعراء فى حب الولد ، قول أعرابى وهو  
يرقص ولده :

أحبه حب الشحيح ماله قد كان ذاق الفقر ثم ناله  
إذا يريد بذله بداله

وقول أعرابية :

يا حبذا ريح الولد ريح الخزامى بالببلد<sup>(١)</sup>

وقول أعشى سليم :

نفسى فداؤك من وافد إذا ما البيوت لبسن الجديدة  
كفيت الذى كنت أرجى له فصرت أباً لى وصرت الوليدا

وهذه الأبيات المنسوبة إلى حطان بن المعلى :

لولا بنيات كزغب القطا<sup>(٢)</sup> حططن من بعض إلى بعض  
لكان لى مضطرب واسع فى الأرض ذات الطول والعرض  
وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض  
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني من الغمض

(١) الخزامى بضم الخاء وفتح الميم : نبت زهرة من أطيب الازهار .

(٢) الزغب بضم الزاى وإسكان الغين ؛ جمع : أزغب وهو فرخ القطا . والقطا

جمع قطة طائر فى حجم الحمام .



وقول بعضهم :

لقد زاد الحياة إلى حياً      بناتى إنهن من الضعاف  
مخافة أن يرين البؤس بعدى      وأن يشربن رنقاً (١) بعد صاف  
وأن يعرين إن كسى الجوارى      فتنبو العين عن كرم عجاف (٢)

وأخيراً قول أعرابي يرثى ابنته :

يا شقة النفس إن النفس والهمة      حرى عليك ودمع العين منسجم  
قد كنت أخشى عليها أن تقدمنى      إلى الحمام فيبدي وجهها العدم (٣)  
فالآن نمت فلا هم يؤرقنى      تهدء العيون إذا ما أودت الحرم

وبعد ، فهذا ما يملك قلبى من الترجمة عن بعض حب الولد ،  
وإن مما يتدسى من العواطف فى أطواء الجنان مالا يستطيع أن يبلغه  
القلم أو اللسان ! وذلك غير ما استعنت به من أقوال صدر من أعلام  
البيان ، وعلى رأسهم سيد الأنام . عليه الصلاة والسلام .

### ب - أكرههم

نعم ! وأكرههم بقدر ما أحبهم . أكرههم لأنهم لو لم يكونوا  
ما جهدت هذا الجهد فى السعى عليهم ، ولا تعنيت هذا العناء فى

(١) الرنق الماء الكدر .

(٢) كرم : كريمات وصفا بالمصدر للمبالغة . عجاف : مهزولات .

(٣) يريد تعرضها من الفاقة لسؤال الناس .

تربيتهم والترفيه عنهم ، بلى لبقى لى فضل أتمتع به فى الحياة وأنعم .  
أكرههم لأنهم لا يجزون ، من العطف على والرقعة لى ، ولو بنسبة  
واحد فى المائة من عطفى عليهم ورقتى لهم .

أكرههم لأننى إن استنظرتهم لم يصبروا، وإذا واتيتهم لم يشكروا.  
أكرههم لأنهم قد يدفعوننى إلى سوء الخلق، والتحفيف من المروءة.  
وحسبى فى هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الولد مبخلة  
بجبنة . »

أكرههم لما يحز من الآلام فى قلبى كلما شكوا أحدهم أو أملت به علة ،  
فكيف بما هو أكثر من ذلك مما يطير اللب ، ويخلع شعب القلب ،  
والعياذ بالله !

أكرههم لكثرة ما أظب الذهن بطول التفكير فى حاضرهم ،  
وما يغرى القلب من الاشفاق عليهم فى مستقبلهم .

أكرههم لأنهم كثيراً ما يتعذرون على نصحى ، ويخالفوننى إلى  
بعض ما أنهاهم عنه ، مما يؤذيهم ولا يجديهم ، ويضرهم ولا ينفعهم .  
ويبادوننى بالغىظ والحقد إذا قمت لتأديبهم وبسط العقوبة الحق عليهم .

وبعد ، فأرجو إذا حققت النظر فيما قلت ، أن تستيقن أننى لا أكره  
ولدى كل هذا الكره ، إلا لأننى أحبهم كل هذا الحب .





## الشحاذون المودرن

قيل ، والعهددة على الراوى ، إن مركباً اشتدت به الريح فى يوم  
عاصف ، فجعلت تتقاذفه الأمواج ، وهو يتمايل ذات اليمين وذات  
الشمال ، ويغترف من ماء اللج ما يثقله ، حتى لم يشك السفر فى أنه ،  
لإمحالة ، غارق بهم . فراحوا يعجبون بالدعاء إلى الله تعالى ، ويسألونه  
النجاة من هذا الهلاك . وكان أشدهم اجتهاداً فى الدعاء ، والضراعة  
والابتهال ، رجل يقول فى ابتهاله : يارب ، ماذا عسى لو هلكت أن  
يكون مصير زوجتى وأولادى السبعة ، وليس فيهم من يتكسب ،  
ولا من بلغ سن التبكسب ؟ ثم ماذا عسى أن يكون مصير أختى  
المطلقة وولديها الصغيرين ؟ ثم من ذا الذى يعول أختى الأرملة  
وأولادها الأربعة ، وأنا أحمل الجميع ، لأنه ليس فيهم من يستطيع  
أن يعود على الشمل ولو بدرهم واحد ؟  
أنا لاتعنينى الحياة ، ولكن كيف الحيلة بعد موتى ، فى كل هؤلاء ؟  
وما برح يرفع الصوت بهذه الضراعات حتى كاد يشغل سائر السفر  
بشأنه عن شأنهم ، وحتى كادت تذوب كبودهم من الرقة لحال عياله ،  
وسائر من يعول من آله . ويشاء الله أن تهدأ الريح ، ويسكن الموج ،  
ويسكن وجه الماء ، وتبلغ السفينة الشاطىء بسلام .



وما كادت قدم هذا الرجل تطأ الأرض حتى صاح : « والله العظيم ،  
ما كانت لي قط زوجة ولا ولد ؛ ولا لي أخت أرملة ولا مطلقة ،  
وما علت أحداً في الحياة غير نفسي » ، وخيبة الله على الجاهل  
الأحمق المأفون !

ولقد سبق لي من بضع سنين أن أجريت كلاماً في الرديو ، في  
الشحاذين التقليديين ، واستنظرت السامعين الحديث في الشحاذين  
المحدثين ( المودرن ) .

وإذ كانت عدة هؤلاء تزداد في هذه الأيام بنسبة هائلة ،  
وأساليبهم في الكذبة تتنوع وتتلون ، فقد حق علينا أن نلم بحديثهم  
في مقال .

على أننا قبل أن ندخل في هذا ، نرى من الخير أيضاً أن نطوف  
ببعض القول في الشحاذين التقليديين ، وقد كادوا ينقرضون ويخلو وجه  
المدن الكبيرة منهم ، حتى يخلو على الناشئ ، على وجه خاص ،  
صورتين واضحتين للعهدين ، يستطيع بهما المقارنة بين الفنين :  
القديم والحديث ؛ وليقدروا مبلغ التطور العظيم في أسلوب الشحاذة .  
هذا التطور الذي أصبح يكافئ ، بحق ، سائر نهضاتنا العظام !

كان الشحاذون ، ولا زالت منهم بقية قليلة ، يعتمدون في المسئلة  
على إلحاح الجوع ، والعجز عن السعي والعود على الشمل ، بألوان  
من الأمراض والأسقام ، والنقص في الخلقة ، والآفات المعدادة للمرء  
عن السعي والحركة في أسباب الرزق ، فكان دعاؤهم في الطرق ،  
وعلى أبواب الأضرحة ، وفي الجبانات في الجمع والمواسم من نحو :

اللقم تمنع النقم ! هنيئاً لك يا فاعل الخير ! عشا الغلابة عليك يارب !  
 سيد كريم أوست كريمة تحن على العاجز يا محسنين ! الخ . . .

ولا جدال في أن دعوى الجوع والعجز عن الرفق بالبدن في  
 سبيل الرزق ، تحتاج إلى اصطناع ما يشبهها من بلى الثوب وبلى الجسم .  
 وقد تعصب العينان لوشك ذهاب البصر بالرمد ، وقد يظهر النقص  
 في الخلقة بفقد الذراع الأيمن ، أو فقد أحد الساقين ، أو فقدهما جميعاً ،  
 فلا يسع الشحاذ المسكين إلا أن يزحف على الأرض زحفاً . فاذا  
 لم يكن المولى جلت قدرته قد من عليه بهذه النعمة ، أو تلك ، مضى  
 إلى رجل إخصائي كان مثواه في بولاق ، وكانوا يدعونه الربيط فاذا  
 كتب لك ، أو كتب عليك أن تجوز بدكانه في الصباح الباكر ،  
 رأيت خلقاً مزدحمين ببابه ، هذا يطلبه ليربط ساقه ربط العرج ،  
 أو ساقية ربطة الكساح ، وهذا ليثني ذراعه حتى لا يشك رائييه في أنه  
 قد فقد الذراع . وهذا ليشد له بعض جسده ويرخي منه بعضاً ،  
 فهو ومن ضربه الفالج وأبطل نصفه بمنظر سواء . وهكذا !

وأنت خير بأنه إذا كانت الأسقام والعلل والنقص الطارىء على  
 الخلقة هي رأس مال هؤلاء القوم ، ووسيلتهم إلى الرزق ، بل إلى  
 الجمع والادخار ، وإحراز الغنى ، وإدراك اليسار ، قدرت مبلغ  
 تحاسدهم على العلل والآفات . حتى لتسمع من بعضهم إذا غبط آخر :  
 « اللى بلاه يبيلينا يا سيدى ! » وتسمع من غيره وقد أخذته الموجدة  
 على غيره : « بيتكبر على إيه ، هو ما حدش انشل إلا هو ؟ آدر ربنا  
 يجرمه من الشلل في طرفة عين ، ويشمت فيه العدو ! »



هذا ، بالاختصار كان سبيل الشحاذين القدامى ، أو الشحاذين التقليديين ، وتلك كانت وسيلتهم في فهم ، وسعيهم في الرزق ولجمع المال . أما الآن ، وفي عصر النهضة ، فمن النادر جداً أن تسمع مثل : اللقم تمنع النقم الخ . . . ، أو تسمع : رغيف عيش وصحن طبيخ ! أو تسمع : عشا العاجز عليك يا رب . . . ومن النادر جداً أن تسمع مثل هذا أو ذلك . فاذا قدر لك أن تسمعه ففي الأزقة والدروب التي لا تسلكها عين البوليس ، ولا تقع الأصوات منها لسمعه ، وإلا لكان ، لا سمح الله ، في الملجأ الكافل المشوى والمأكل والملبس متسع للجميع !

وإذا كان شحاذو الأمس لا يظهرون إلا في بلى الثوب وبلى الجسم ، فشحاذو اليوم لا يظهرون إلا في نضارة الشباب ، وبضاضة الأهاب ، وأناقة الثياب ، هم « ذوات » قد انحدرت النعمة عنهم . أو أنهم ما برحوا يتقلبون في النعمة ، ولكن كرتهم من الطواريء العاجلة ما أحوجهم إلى المعونة العاجلة . وأمثال هؤلاء لا يسألون رغيفاً ولا « صحن طبيخ » حاشا لله ! إنما يسألون نقوداً ، ونقوداً قد تكون في بعض الأحيان كثيرة . وماذا لعمرى بيدي الرغيف على من هبط القاهرة من الاسكندرية مثلاً، واستل الطرارون (النشالون) كيس نقوده . وماذا يغني صحن الطبيخ من مات عنده ميت لا يجد ما يجهزه به ويحمله إلى مرقده في مقبره ؟ وماذا ينفع هذا أو هذا في إكمال قسط المدرسة وقد حل ، وأوشكت إدارتها أن تطرد الولد طرداً ، وتدعه عن طلب العلم دعاً ؟ ثم ماذا يفيد هذا أو هذا في معونة

مدرسة تعلم اليتامى وأبناء الفقراء بالحبان ، ما تقتضيهم على التعليم والطعام قرشاً؟ وهكذا! . . .

وهؤلاء لا يلقون الناس ، بالضرورة ، في الثوب الخلق ، ولا بالوجه الشائه ، ولا بالجلد المتقيح ، بل إنه كلما عظمت أناقتهم ، وجمل سميتهم ، وانصر خلقهم ، كانوا أدنى إلى الصدق في المسئلة ، وأدر لعطف المسؤل ، ولا يذهب عنك أنه قد ورد في الأثر: « أعطوا السائل ولو جاء على فرس » .

وهؤلاء كذلك لا يتسكعون في الأزقة ، ولا يزحفون في الدروب ، لأن سكانها لا يجودون إلا باللقمة ، ولا يخرجون للكشكول السائل إلا فضالة الطعام . وذلك عهد قد مضى ، بحمد الله ، وانقضى ؛ بل لا تراهم إلا منخطر ين في أعلى الشوارع وأحفلها بعليّة الناس .

وكثرة هؤلاء لا يتعبون أنفسهم في طلب الزبائن والاختلاف إليهم في دورهم ، بل إنهم ليرتصدون لهم في المقاهى أو على لقم الطريق ، حتى إذا جاز الزبون بهم دعوه كما تدعوا بائع التفاح ، أو الخيار ، أو بائع الفجل ، أو غيرهم من هؤلاء الباعة المترفقين بأبدانهم السريحة سواء بسواء !

ومن هؤلاء من يعترضك في الطريق ، ولا يستحي من أن يقول لك : « والله أنت ابن حلال لقد قضيت أكثر من ثلاثة أشهر في البحث عنك ، وهأنذا قد أصبتك ، والحمد لله ! » ثم يفضي إليك بالمسئلة . وثلاثة أشهر وهو يبحث عنك ولا يصيبك ، حتى أذنت المصادفة وحدها باللقاء ! ولا والله ما زاد على أن جعلك متشرداً ليس لك عمل ولا لك



محل إقامة . أو أنك فار من وجه العدالة ، أو أنك هارب من اللومان والعياذ بالله !

ولقد يقع أن يعتريك أحد هؤلاء الشحاذين «المودرن» في دارك ، أو في مشوى عمك ، أو في المقهى ، إذا كنت ممن يشوون إلى المقاهى ، وقد بسط يده وفيها حفنة من الدراهم ، ويباديك بأن ما في يده هو أقصى ما في جهده من قسط المدرسة ، وأنت أبر وأكرم من أن تدع الولد يطرد من المدرسة ويحرم نعمة العلم في شئ يسير لا يضرك ولا يتحيف مما أفاء الله عليك من النعم !

ومن أظرف ما سمعت ، والعهددة على الراوى ، أن هذا الشحاذ الغيران على تعليم ولده وتثقيفه قد لا تكون في يده هذه المصيدة ، وأعنى بها المائة والخمسين قرشاً ، والمائة والسبعين التي تقتنص باقى القسط فيستعيرها من بعض رصفائه ، كما كان فساد أولاد البلد يستعرن من الجارة الغربال والمعجن ( ماجور العجين ) على أن يرد إلى أصحابه بعد قضاء الحاجة منه !

ولقد حدثنى من لا أشك في خبره ، أنه كان ذات يوم ساعياً مجدداً في الطريق ، فلحمه رجل من هؤلاء يعرفه فركض خلفه حتى أدركه ، وحلف له بكل محرجة من الايمان أنه قد مضى عليه وزوجه وأولاده الخمسة ستة أيام ما ذاق أحد منهم لقمة واحدة ، فقطب صاحبي وجهه واصطنع الجد ، وقال فى حدة وعنف : اسمع يا هذا ! إننى إذا أطعمتك وأهلك وولدك أكون أكبر مجرم فى العالم . فقال له الرجل : وكيف ذلك ؟ قال : أنت تعلم أننى لن أعولكم أبد الدهر ، وكل ما يسعنى

هو أن أمدكم بضمن وجبة أو وجبتين . قال الرجل : ولسنا نطمع في أكثر من هذا . فقال صاحبي : أبعد أن عانيتم في طريق الموت جوعاً ما عانيتم ، حتى لم يبق بينكم وبينه إلا ساعات معدودة تبلغكم نهايتها الراحة الكبرى من هذه الحياة الأليمة ، أردكم إلى الحياة ثانياً لتعانوا في طريق الموت ما عانيتم ، وتعاودوا هذه الآلام التي جازت بكم ؟ أفصدقت أنني إن فعلت أكون أكبر مجرم في العالم !

ومن أعجب ما يذكر في هذا الباب ، أنه في إحدى العشايا من الأسبوع الماضي ، قد اعترضني في بعض الطريق رجل لا يخلو سمته من تجمل ، وثيابه من تأنق ، وحلف لي بكل مؤثمة من الايمان ، أنه قد احتسب ولده في الصباح الباكر ، ولا يزال مسجى في البيت لأنه لم يجد نفقة تجهيزه ودفنه . وأسرع ، تأكيداً لقوله ، فدس في يدي ورقة ، فإذا هي ترخيص بدفن «فلان» ولم يرعنى إلا أن تاريخ هذا الترخيص يرجع إلى أكثر من ستة أشهر !

حقاً لقد راعنى وهالنى ، وكاد يذيب كبدي أن تظل جنة هذا الغلام المسكين رهن البيت هذه المدة الطويلة . ومن يدري فعلها تظل كذلك مدة أطول ؟ وانطلقت لوجهي وأنا ألعن بلساني وقلبي قسوة هذا الانسان ، حتى على الأموات ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !

وبعد ، فأننى الآن أستطيع ، بدورى ، أن أحلف في غير إثم



ولا حرج على أنه ما قدم قادم من الاسكندرية فاستل الطرارون  
 كيس نقوده ، ولا كان ولد في المدرسة حل القسط من نفقات تعليمه ،  
 ولا قامت مدرسة تعلم اليتامى وأبناء الفقراء بالهجان أو بغير الهجان ،  
 ولا كان هناك زوجة ولا خمسة أولاد جياع أو غير جياع ، ولا ولد  
 في الدار ميت ولا من الأحياء الخ . . . ؛ إن هي إلا شهوة التبطل  
 والعيش ، وإصابة اللذائذ ، وإدخال المرح على النفس بفنون المكيفات  
 وكل أولئك على حساب العاملين ، وقد يكون فيهم العليل المكدود ،  
 وقد يكون فيهم من يعنيه ويرهقه السعي على الأهل والولد ، وقد  
 يكون فيهم من يجهده المعروف بصلة المحتاج من ذوى القربى ، أو  
 المسكين حقاً ، أو اليتيم المحروم !

فعلينا ، أيها العاملون أن تضاعفوا السعي ، مهما يجهدكم السعي ،  
 وأن تقبضوا أيديكم عن الانفاق على الأهل والولد ، وألا تبسطوها  
 للمحتاجين من ذوى القربى أو تمدوها بالمعروف لليتيم المحروم . وإن  
 كل ما تجمعونه بالسعي والسكد ، ينبغي أن تحفظوه في أيديكم عامة  
 نهاركم وصدراً من ليلكم ، حتى إذا أوقعت المصادفة على أحدكم عين  
 شرخ من هؤلاء المتبطلين أسرع فدفعه إليه غير مأجور ولا مشكور !

منه ومنه ما لا يورثه كذا فليس هو ذلك بل هو الذي لا يورثه  
 من غيره بل هو الذي لا يورثه كذا فليس هو ذلك بل هو الذي لا يورثه  
 من غيره بل هو الذي لا يورثه كذا فليس هو ذلك بل هو الذي لا يورثه  
 من غيره بل هو الذي لا يورثه كذا فليس هو ذلك بل هو الذي لا يورثه

## الكذب الفنى

لا شك في أن الكذب يعد من الرذائل في كل زمان وفي كل مكان  
 بل لا شك في أنه من أخبث الرذائل جميعاً ، بل لا غرو على من  
 يذهب إلى أنه أخبث الرذائل جميعاً . أليس هذا الكذب الفنى  
 ألسنت أسوق هذا الحديث درساً في الأخلاق ، فأشرح مزايا  
 الصدق ومحاسنه ، وأورد مقابح الكذب ومآثمه ، فذلك أمر مفروغ  
 منه من الأزمان الطوال . وإنما أريد أن أتحدث في هذا حديثاً يسيراً لعله يجدى فيما قصدت  
 إليه بانشاء هذا المقال . فإذت خبير بأن من يأخذ نفسه بفضيلة الصدق ويطلع  
 عليها لسانه ، نراه ، يتأثم من مقارفة الكثير من الرذائل ، ويتخرج  
 من إتيان ما يعيب الرجل المرئى : ذلك لأنه يخشى إن هو سئل ،  
 الوقوع بين أمرين خيرهما شر ، وأحلاهما مر ، وهما التورط في  
 الكذب ، وقد علم أنه رذيلة الرذائل ، وإما الصدق الذي يكشف  
 من أمره مالا يجب أن يصله الناس به ويعهدوه عليه . أما من راض  
 نفسه على الكذب ، وأسلم زمام لسانه لهذه الرذيلة ،  
 فهذا ، ولا ريب ، من وطن نفسه على مقارفة ما يشاء من المقابح ،



ومعاطاة كل ما يلذه من المآثم ، مستمداً الخلاص من الكذب ، وهو في ظنه لا ينضب معينه ولا ينفد مدده ، غافلاً عن أن جعل الكذب ، كما قبل ، قصير ، وأنه بحسب المرء أن تحصى عليه كذبة ، ثم كذبة ، ليشتمل دائماً للناس كذاباً لا يصدق أبداً ، ولو صدق ، ولا ينطق الحق مطلقاً وإن نطق !

وهذا من الجهة الفردية . أما من جهة المجموع ، فالأمر أجل وأخطر . وأرجو أن تستحضر في ذهنك الآن قضية مسلمة سهلة واضحة وهي أن نظام الجماعات كله قائم على صحة النقل ، وفرض صحته ، سواء أكان المتحدث مترجماً عما في نفسه أم راوياً عن غيره . على هذا يدور نظام الجماعات في كل زمان وفي كل مكان ، إذ أن الأصل أن يصدق المتكلم ، كما أن الأصل أن يصدق السامع ، وعلى هذا الأساس تجرى المعاملات بين الناس في مختلف الأسباب . وكذلك ينتظم شأن الجماعة ، ويقوم التعاون بين الأفراد على الاضطلاع بأعباء الحياة ، بحيث تنتظم منها وحدة يكون الأفراد منها بمنزلة الأعضاء من جسم الانسان .

ولنقدر أن جماعة شاع فيها الكذب ، وقل فيها الصدق ومطابقة الاخبار للواقع ، فإن مما يلزم هذا ويتبعه فوراً أن يسود التكذيب الجماعة ، فلا يصدق أحد أحداً أو لا يكاد يصدقه ويركن إليه قوله . فنعمري ، ماذا يكون شأن الجماعة في هذه الحال ؟ وكيف ينهض الناس بالأعمال المشتركة ، وكيف يتم التعاون بين الأفراد ، والحياة الاجتماعية ، كما تعرف ، إنما هي تعامل وتبادل وتعارض . ومدار

هذا كله الثقة العامة ، فاذا فقدت هذه الثقة ، والعياذ بالله ، انهدم  
 كيان الجماعة ، وأصبح بنيانها الشاهق ، أنقاضاً على أنقاض !  
 هذا والكذب على قبيح قد يساغ في بعض المواطن إذا دعت  
 إليه ضرورة . والضرورات ، كما قالوا ، تبيح المحظورات . وشأنه في  
 هذا شأن غيره ، فان الضرر الكثير لا يخلو من نفع قليل ، والشر  
 الكبير لا يخلو من خير صغير . بل لقد يكون الكذب محموداً في  
 بعض الأحيان .

ومن المواضع التي يسوغ فيها الكذب ، الكذب على الصغير ،  
 إذا لم يكن من ذلك بد لتسكين ثورة نفسه ، والترفيه عنه ، وإدخال  
 السرور عليه . ومن تلك المواضع الكذب للإصلاح بين الزوجين  
 أو بين الصديقين ، على ألا ينجم عن ذلك ضرر .

ومن المواضع التي يحمد فيها الكذب ، بل التي ينبغي فيها اتخاذها  
 وتعمدهم والالحاح فيه ، الكذب في مكاييد الحروب وخدعها ، فان  
 الصدق في هذا ، حيث يستغله العدو ويسلك منه إلى الظفر ، مما يلحق  
 بالخيانة والاجرام . على أن من الناس من لا يأذنون لألسنتهم بالكذب  
 مهما يكن الأمر ، ولقد يعوذون ، في مثل هذه المقامات بالتوريات .  
 وقد قيل : في المعاريض مندوحة .

وعلى الجملة ، فاننا نستطيع أن نشبه الكذب بالسم ، فانه إذا  
 كان في طبيعته القتل والفتك ، فلقد ينتفع بقليله في شفاء العلل وإبراء  
 الأسقام في بعض الأحوال !

وبعد ، فانما يجر الناس إلى الكذب أسباب شتى ، كما تختلف صور



الكذب نفسه باختلاف طبائع الكذابين . ومن أهم ما يدعو إلى الكذب ، وفي الضغار على وجه خاص ، الخوف والتخلص من المسئوليات . ومن أهم ما يدعو إليه فيمن ارتفعت بهم السن ، على وجه خاص أيضاً ، حب الظهور بألوان البطولات الزائفة لا ينفق في سبيلها شيء من جهد أو مال ، أو استهداف لخطر ، أو تعرض لأذى من أي نوع كان ، وقد يدعو إلى ذلك حب التجميل للناس ، واستئلافهم والظهور بالاسراع إلى قضاء حوائجهم .

وكيفما كان الأمر ، فإن الكذب كثيراً ما يضحى غريزة وجبلة ، يعمد إليه من ابتلى به في غير ما رغبة ، ولا رهبة ، ويصطنعه في غير ابتغاء منفعة أو دفع مضرة . بل لقد يعقل هذا وهو يعلم أنه يضره ولا ينفعه . وإذا عرفت عرفت غلبة العادة التي تضعف بالطبع واتصلت بالغريزة ، عرفت أن مثل هذا مجبور ما له في الأمر خيار ! وبعد ، فالحديث في الكذب وقبحه ، والكذبة وإثمهم ، شيء يطول في غير طائل ، وما للكذب المعتاد ، أعني مجرد رواية غير الواقع ، سقنا هذا الحديث ، وإنما سقناه لغرض آخر جليل ، يستحق أن يقابل به مطلع إيريل !

وأرجو أن تعلم أن من الكذب كذباً فنياً ، وإنني أعني هذه الكلمة بكل ما تحمل من معنى ، بل إنني لأمضي إلى أبعد من هذا فأقرر أن هذا « الكذب الفني » مما يمكن أن يضاف ، بحق ، إلى طائفة الفنون الجميلة ، ويوضع في صفها ، وينظم في سلكها ، إذ لا نجده يقصر عما يعطيك النحت أو التصوير أو الموسيقى من الأانس

واستراحة النفس ، وما تثير فيك ، في بعض الأحيان من الطرب ،  
وما تبعث من الأريحية ، بل ما تذكي من حسك ، وتنفذ من فطنتك .  
نعم ؛ هذا اللون من الكذب له فن جميل ، له كل ما للفنون  
الجميلة من رائع الأثر ، وبالغ الخطر ! هو فن جميل لا يجيده ولا يبرع  
فيه إلا من رزق الطبع وأوقى الموهبة ، فاذا تكلفه من لم يؤت ذلك  
خرج سمجاً بارداً ثقيلاً كشأن سائر الفنون الجميلة في هذا ، سواء  
بسواء .

وأول ما يبني عليه هذا الفن أن الاختلاق والتزويد فيه لا يضر  
بشيء ولا يؤذي أحداً ، على أنه بالغ الغاية من الإعجاب والإطراف  
والاضحاك . ولعل من مميزات الواضحة أنه لا يحاول قهرك على التسليم  
بأنه أمر واقع لا ريب فيه ، بل إنه ليعرض نفسه عليك عرضاً بسيطاً ،  
وقد يتكى في معرضه على يمين متجلجلة متخلخلة ، ولك في النهاية  
حكمتك في الرد أو في القبول .

وهذا الكذب الفني ليس ابن اليوم ، ولا ابن أمس القريب ،  
بل إنه قائم معروف ، وأصحابه المبرزون فيه معروفون كذلك من  
الزمان البعيد . ومن ذا الذي ينكر أباحية التميرى مثلاً أو ينكر فنه  
العظيم . ومن ذا الذي يزعم أن صنعة هذا الرجل مما يستطيع أن  
يتكلفه من شاء من العالمين ؟

أليس من التحف الفنية الجميلة قوله يحدث عن نفسه : سرح لي  
ذات يوم غزال فرميته بسهم ، فتيا من الغزال فتيا من السهم وراءه ،  
فتياسر الغزال فتياسر السهم وراءه . وما زال ، في عدوه ، يراوغ



السهم بالتيامن مرة وبالتياسر أخرى ؛ والسهم يلاحقه كذلك ، حتى أدركه ببعض الجبانات فصرعه !

ولا شك أن من القطع الفنية الرائعة ما حدث به هذا أبو حية قال : عن لي ظبي فرميته بسهم ، فانطلق الظبي وانطلق السهم وراءه ، ثم ذكرت بهذا الظبي حبيبة لي فعدوت وراء السهم حتى قبضت عليه قبل أن يبلغه !

وإذا كانت حكاية القزان والكرنية أو السمكة لا يزال لها رونق في بعض الأسفار ، فاعلم أن هذا المعنى مسبوق من العصر القديم . قال الأصمعي : قال الخليل بن سهل : أعلمت أن أطول رمح رسمت كان سبعين ذراعاً من حديد مصمت (١) في غلظ الراقود (٢) فقلت ها هنا أعرابي له معرفة ، فاذهب بنا إليه فحدثه بهذا . فذهبت به إلى الأعرابي فحدثه . فقال الأعرابي : قد سمعت بذلك ، وبلغنا أن رسم هذا كان هو واسفنديار أتيا لقمان بن عاد بالبادية ، فوجداه نائماً ورأسه في حجر أمه ، فقالت لها : ما شأنكما ؟ فقالوا : بلغنا شدة هذا الرجل فأتيناه ، فانتبه فزعاً من كلامهما ، فنفخهما ، فألقاهما إلى أصبهان ، فقبرهما اليوم بها . فقال الخليل : قبحك الله ما أكذبك ! قال : يا بن أخي ما بيننا من شيء إلا وهو دون الراقود !

(١) مصمت : لا جوف له . أو كما تقول العامة : صب .

(٢) الراقود : الدن الكبير ( برميل ) .

وما أبدع روائع النفاجين (١) ، ما روى أن عاملاً فى روسيا فى مصنع لتقديد اللحم ، لقى فرنسياً يعمل فى بلاده فى مثل هذا المصنع . لجعل كل منهما يكثر بمصنعه ، ويهتف بعظمته وقوة آلاته حتى قال الروسى : إن مصنعنا تساق إليه قطعان الخنازير من هذه الناحية ، فلا تلبث بضع ثوان حتى تخرج من الناحية الأخرى لحوماً مقددة مصففة فى العلب ، عليها اسم المصنع وشعاره !

فقال الفرنسى : وما هذا ؟ فان مصنعنا ليزيد على ذلك بأنه إذا خرج بعض العلب فاسداً ردت ثانياً فخرجت من الناحية الأولى خنزيراً حياً سوباً !

ومثل هذا ما قيل من أن فرنسياً أقبل على صاحبه الروسى ، وجعل يحدثه عن شدة البرد فى بلاده ، قال : خرجت فى يوم من أيام الشتاء إلى إحدى الغابات ، فاعترضنى أسد ، فأسرعته وتسلمت شجرة باسقة ، وجلست على رأسها ، وكان خنجرى قد سقط عند أصلها ، وظل الأسد رابضاً إلى جذع الشجرة فى ارتصادى وترقب افتراسى . ومن شدة الخوف قطر منى ماء ما لبث أن انعقد ، من عظم البرد ، قضيباً ثلجياً ، فتناولت به الخنجر وتدليت فشققته به صدر الأسد !

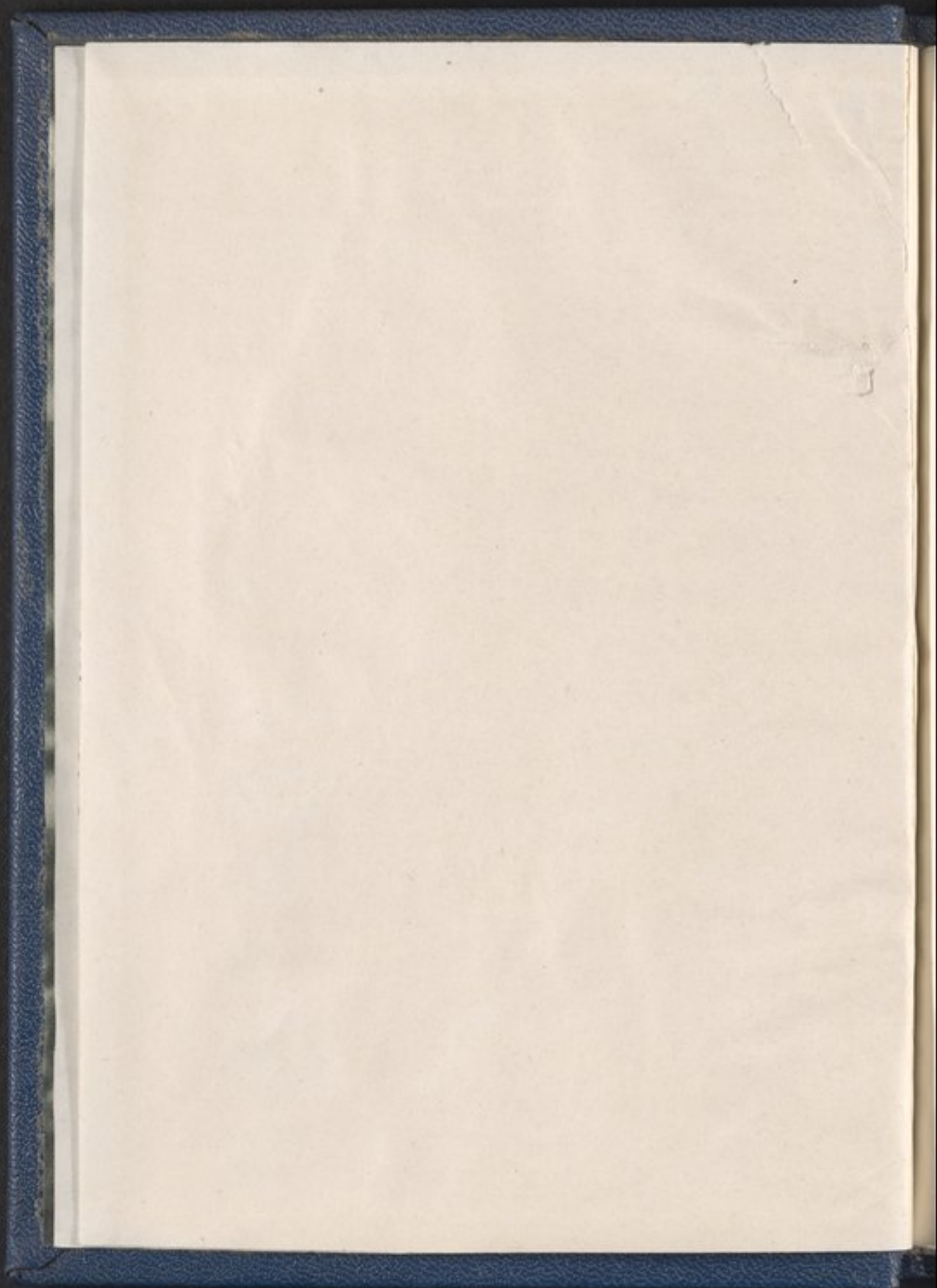
فقال له صاحبه الروسى : وما ذلك ؟ إن هذا ما يكون عندنا فى وقدة القيظ ! أما إذا كان الشتاء وخرج الناس فى الصباح الباكر

(١) النفاج (بتشديد الفاء) : المدعى المفتخر بما ليس عنده ، وهو من يعبر عنه العامة فى مصر بالمعار .



لطياتهم ، أقبل بعضهم على بعض بالتحيات المعتادة . ولكن الكلام  
 ينعقد على شفاههم فلا يهجس منه حرف واحد ، فإذا طلعت الشمس  
 وخفت حدة القر ، رأيت آفاق الجوكله تتصايح بـ « صباح الخير —  
 أسعد الله صباحك — أرجو أن تكون بعافية — صحتي جيدة وأنت —  
 إلى أين ؟ — الحمد لله — صباحك التوفيق الخ . . . »

وبعد ، فلقد كنت أحب أن أتحدث عن عباقرة الفن الحديث  
 ممن أدركناهم ، ومن لا يزالون قائمين في الحياة ، وأعرض لخواص  
 فنهم وأشهر ما جادوا فيه من الطرف ، لولا أن الكلام قد طال .  
 فإذا كانت في العمر فسحة فلعلنا موقوفون إلى هذا في إبريل المقبل  
 إن شاء الله .







b. 130 11658  
2. 14 717062



DATE   DUE

MERVAT F-HATEM (grad):

APR 23 1974

U. C.  
30 SEP 1999

